الأنـــــا

"سيرة ذاتية محرفة"

للشاعر/ حزين عمر

حقوق الطبع والنشر محفوظة
لدار الأديب للنشر والتوزيع

اسم الدار	دار الأديب للنشر والتوزيع
اسم الكتاب	الأغـــــا
اسم المؤلف	حزين عمر
رقم الإيداع	(/٢٠١٩) بدار الكتب المصرية
الإخراج الصحفي	دار الأديب. (إيهاب القاضي)
الغلاف	من تصميمات الدار. (محمد يحيى)

.. و أثناء ركوبه الحمارة البيضاء، مخططة العنق .. قام إليه _ من أمام الشيخة مريم _ رجل عجوز، مهترىء الملابس، كث اللحية البيضاء، يسيل لعابه علي ذقنه و صدره و ناداه :

_ يا ولد !

التفت إليه " حزين " و لم يشمئز من هيئته، و لم يتصامم عن هذا الكائن المهمل و هو يفزع فيه " يا ولد "، و لم يدر بذهنه أن له اسماً ينبغي أن ينادى به _ و باحترام _ خاصة من عجوز كهذا .. و لم يكن " حزين " في حاجة إلي أن يرد على نفسه :

_ إنه غريب لا يعرف اسمي، لأن أياً من هذه التساؤلات لم يطل من ذهنه ولا أختلج في صدره ..

واصلت أمي روايتها " التاريخية " :

_ انتفض اهتمام حزين بنداء العجوز " المهطل " فرد :

_ نعم يا جدي ..

_ اهبط إليّ يا ولد .

_ حاضر .

_ خذني علي حمارتك .

رفعه حزين خلفه علي الحمارة البيضاء مخططة العنق، و لم يطمئن إلي تركه وحده حتى لا يقع و (وتطأه) (سنابك) الحمارة .. و بعد عدة أمتار (نغز) العجوز جدك حزين

و صرخ :

- يا ولد .
- نعم يا جدي .. أتعبت من ظهر الحمارة .. هذه عمامتي ضعها تحتك .

و كأنه تنبه إلي لعابه فجأة .. فمسح بطرف العمامة فمه و أنفه قبل أن يسلمها له ليجلس عليها .

_ يا ولد ..

هكذا بعد برهة أخري

- نعم أيها الجد الطيب ..
- أتعرفني ؟ :
- لا ..
- لِمَ إذن تناديني : جدي ؟ !
- كبر السن .. أطال الله عمرك !!
- كبر السن ؟! أتتهمني بالشيخوخة .. يا قليل الحياء ؟!
- معذرة يا .. يا سيدي .. أنا قصدت أنك كوالدي _ رحمه الله _ بل تخطيته عمراً
- إذن .. التفت إليّ .
- . . . .
- افتح فمك
- . . . .
- لم يتوقع حزين _ جدك الخامس – مفاجأة كالتي تلقاها : لقد بصق العجوز في فمه .. لكن هذه لم تكن لب المفاجأة .
- و هل هناك " لب " أكثر من هذا القرف .. يا أمي ؟ !
- نعم يا بني .. هي .. هل تنام ..
- لا لم أنم .. هأنذا مفتح العينين : ماذا حدث ؟ !
- لقد اختفي العجوز في غمضة عين !!

_ لا .. لن أكملها ..

_ و رحمة أبيك .. لتكمليها !!

_ ذكرتني .. لِمَ أيها الشقي ؟! إن دمعي عليه لم يجف منذ ستة أشهر .. كان صبوراً حمولاً، كان جملاً .. لحظة (المفارقة) ظل مبتسماً .. و كنت أرصد انسحاب الروح من جسده لحظة لحظة : بردتْ أولاً قدماه و توقف ارتعاشهما .. ثم تسلل

البرد إلي ساقيه حتى طمر نصفه السفلي جميعاً .. و لم يتأوه، و لم يسودّ وجهه . لكن حدقتي عينيه تتسعان .

_ أمي .. أتتحدثين لشخص آخر ..

أنت رافعه وجهك للسماء ..

_ هيه ! ! إنه جدك !

_ أين هو ؟ !

_ في السماء يا " حزين "

_ لا أراه

_ فيما بعد سوف يحدث.

- اختفي إذن كذلك العجوز المختفي من خلف جدي حزين :! أكان أبوك عجوزاً حينما اختفي ؟ !

_ لم يختفِ .. رحل .. طار .. مات .. مات ..

_ إذن مات كذاك العجوز .

_ العجوز ذاك لم يمت ولن يموت الآن .. كان اختفاؤه من فوق الحمارة هو الإعلان عنه.

_ نعم ؟!

- أي بني .. أقصد لقد كان ذاك العجوز .. قطب الرجال .. عليكم السلام و رحمة الله وبركاته ! !

- علي من تردين السلام ؟!

- علي قطب الرجال .

- فوق ظهر الحمارة ؟!

- لا إنه يمر الآن .

- لا أري أحداً .

- كلما يرد ذكره في مجلس لابد أن يمر عليه، و يلقي السلام علي الجالسين ..

إنه لم يمر علينا ولا سمعت له صوتاً ..

- هكذا هو دائماً : متخفٍ، و يبدو لمن يشاء إذا شاء .
- أهو دائماً متسخ الثياب، يسيل لعابه ؟ . لِمَ يبصق في فم جدي، و قد قدم له المساعدة و حمله علي حمارته ؟!
- لقد أصبح جدك بعد أن تفل في فمه مباركا .. تفتحت له الأسرار في الحياة ..وبارك الله في كل عمله، و كلما اشترى ماشية ربحت، أو أرضاً بوراً أثمرت .. حتى ملك كل هذه القرى و العزب، التي خلَّفها لأبنائه، أي جدك الرابع و أخوته .

_ أمي .. أمي .. افتحي فمك .

_ أما زلت يقظاً ؟! لِمَ لا تنام ؟ ! لقد انتصف الليل و نامت حتى الضفادع في الترع، و أنت مفنجل العينين ! !

_ و لِمَ أنام أنا مع الضفادع في الترع .. ألا يمكن أن ننام بالنهار ؟ !

_ نوم النهار للعفاريت و الجن .. و نوم الليل للبشر ..

_ العفاريت و الجن .. هم إذن يقظون الآن ! !

_ نعم .. و يسمعوننا ويروننا .. لكن لا يظهرون ولا يتجسدون إلا أحياناً في شكل قطط سوداء وثعابين ..

_ أمي .. أمي .. أريد أن أراهم ! !

- أعوذ بالله من الشياطين و الجن ! ! إنهم يؤذون البشر .. و إذا لم تنم الآن خرج عليك عفريت " براهيم يمن " أو أبو عربية كارو ..
- أهذه أسماء هؤلاء الجن : براهيم يمن و أبو عربية كارو ؟!
- لا .. هؤلاء ليسوا جناً .. إنهم عفاريت .. الجن مخلوقات من نار .. وهم الذين يتجسدون في شكل القطط السوداء و الثعابين .. أما العفاريت فهم أشباح تظهر للمقتول .. و الأصل فيها أن الشبح أعمي بطبيعته .. فإذا قتل إنسان جرت إليه أشباح كثيرة من هذه العمياء .. و من أدرك دمه أولا، و كحل به عينيه أضحي مبصراً .. فيرتبط بالقتيل : شكلا و مكانا و زمانا فتراه يقلده لحظة مقتله .. و في مكانه نفسه .. و عفريت براهيم يمن يظهر في الغيطان القريبة من بيتنا هذا .
- و متي قتل ؟ !
- منذ خمسة عشر عاماً .. كان قد صعد ليلاً إلي إحدى النخلات لسرقة بلحها، و فجأة طب عليه صاحب النخلة و هو فوقها .. فأطلق تجاهه رصاصة أصابت مؤخرته فانفجرت فيها طاقة دم كحنك الفرن، و هو من أعلي النخلة، و قد ملأت الآفاق صرخته .
- كيف يطلع لي عفريته إذن .. و نحن هنا داخل البيت، وهو مقتول في الغيطان ؟!

- يمكن أن تسمع صرخته، و لحظة سقوطه .. و يمكن كذلك إذا لم تنم أن تسمع أبو عربية كارو أو جنية السبع نخلات ..
- هل يدخل علينا أبو عربية كارو هنا ؟ !
- لا .. إنه يمر من أمام البيت، جلبته تشبه جلبة العربة الكارو التي حملت جثته، بعد أن أطلق عليه النار أحد أبناء بلدتنا _ العجميين _
- هل طلب منه أن يركب معه العربة و رفض الرجل ؟
- لم يطلب ركوب العربة .. لكن ما حدث أن هذا الرجل كان قد تسبب في قتل أحد أبناء العجميين في قرية " الشيخ فضل " .. كان الوقت أذان مغرب أحد أيام رمضان .. و الرجل ابن بلدتنا تأخر عن الوصول إلي بيته، فركن لحظات ــ و هو صائم ــ بجوار بيت أبو عربية كارو .. و حينما أذن للإفطار طرق الباب طالباً جرعة ماء يجرح بها صيامه .. لكن أهل البيت لم يرفضوا منحه هذه الجرعة فقط ...
- إذن أطعموه معهم .
- .. بل انهالوا عليه صفعاً و ركلاً، و اجتمع عليه الجيران ظناً منهم أنه لص .. و ظلت أحذيتهم و قباقيبهم و عصيهم تنهال علي بلدياتنا الصائم حتى قتل جائعاً ظمئاً .. و أصبح الأمر ثأراً بين بلدتنا و الشيخ فضل .. ثم ترصد له أحد أبناء بلدتنا أثناء عودته ...
- عودة من ؟ !
- أبو عربية كارو ..
- أهذا اسمه ؟!
- لا .. لقد سمي به بعد أن أطلق عليه النار .. كان بلدياتنا قد كمن له في جنينة الحاج توفيق خلف الشجر نهاراً، أثناء عودته من سوق الخميس بأبشواي .. و أطلق عليه الرصاص وهو يركب عربيته الكارو، فسقط الرجل غارقاً في دمائه، و ظل الحمار يجر العربة بالقتيل عابراً حدود العجميين، ثم (تلات)، حتى وصل إلي الشيخ فضل ليسلمه إلي أهله ..
- و مالي أنا و هذه الحكاية ؟ !

- ما يهمك فيها أن عفريته سيظهر لك الآن إن لم تنم .. سوف تسمع كركبة العربة ذهاباً و عودة من هنا من أمام باب بيتنا ما دمت مستيقظاً .
- إذن .. لن أنام حتى أسمعها ! !
- يا خبيث .. ماذا أفعل بك يا حزين لتنام ككل الأطفال في سنك .
- لست طفلاً يا أمي .. أنا رجل في السادسة من عمري .
- طبعاً رجل .. و ستكون أرجل لو نمت ..
- فلتحكي لي حكاية جنية السبع نخلات حتى أنام .
- ألا تنسي ؟! جنية السبع نخلات حكايتها محزنة .. بنت أموره في العشرين من عمرها .. جميلة .. عيونها لامعه و شعرها أسود طويل و ناعم، وفارعة كالصفصافة .. و ظل الخطاب يترددون علي دارها طلباً للزواج منها : ابن العمدة، و أبناء التجار و الأثرياء، و هي ترفض .. لقد وقعت في عشق شاب لم يرض به أهلها، و أصرت هي علي رفض الآخرين، و دفعها العناد و مخالفة الأهل إلي ارتكاب المعصية _ و العياذ بالله _ مع الشاب . و بعد أسابيع و أشهر بدأت الرائحة تفوح .
- رائحة الشاب ؟ !
- رائحة المعصية .
- أية معصية ؟!
- المعصية .. المعصية .. المعصية يا ولدي أنها .. أنها .. نامت مع الشاب بدون زواج .
- آه .. فهمت .. رائحة النوم إذن .
- أقصد أنها حملت .. أفهمت حملت في بطنها طفلاً .. و بدأت الأم تشك في بنتها .. واستدعت " الداية " التي كشفت عليها و أكدت أنها حامل في شهرها الخامس ..و اعترفت البنت .. لكن عائلتها الصغيرة لم تستطع أن تزيل العار بقتل الشاب الذي سلب شرف ابنتهم .. فلجأوا إلي مسح العار بقتل البنت نفسها .. سحبوها لحظة أذان العشاء و أخذوها إلي هذه النخلات التي تراها علي بعد النظر ..
- السبع .. السبع .. نخلات .

- نعم .. و لفوا شعرها الطويل جداً حول جذع النخلة، و ربطوا كذلك رجليها من أسفل .. ثم جلسوا يبكون عليها و يودعونها، قبل أن يسكبوا الجاز فوق رأسها و جسدها .. و هي صامته ذاهلة، لا تقاوم، ولا تفعل شيئاً .. لأنها مخطئة، و أدركت خطأها .. ثم ألقوا عود كبريت مشتعلاً فوق البنية، اشتعلت فيها النيران .. و حينها شق صراخها الآفاق، و رأي من شهدوا الواقعة بأعينهم السماء و قد احمرت بشدة، و زمجر البرق و الرعد .. و منذ ذلك الزمن نري جنية السبع نخلات تصرخ في غبشة ما بعد العشاء من حين لآخر .. و قد ... أخيراً .. أخيراً أغمضت عينيك يا متعب ..
- أمي .. أنا متعب ؟ !
- أمازلت مستيقظاً ؟ !
- سأنام هذه المرة بشرط أن تفتحي فمك ..
- أفتح فمي .. أفتح فمي .. أنت تكرر هذا المطلب ..
- لأبصق فيه .
- تبصق ؟ ! أنا لم أغضبك، و حكيت لك حواديت وحكايا كثيرة ..لِمَ تعاقبني إذن ؟!
- لا أعاقبك .. أريد أن أبصق في فمك حتى تشتري لنا كل الأراضي و العزب المحيطة بنا .
- أنا ؟ ! و كيف أشتريها .
- ألم يملك جدي حزين كل هذه البلاد حينما بصق العجوز في فمه ؟ ! !

لم تمكني أمي من تقديم " بصقة البركة " إليها ..
و لن أسعي لها . فها هو ذا أبي في سهراية أخري يروي _ ما روي ألف مرة _ و يستمع إليه ضيوفه : عم رشاد من عزبة هريدي، و عم احمد شعبان من " الشققه "، و عم شعبان الرشاش من ''الدحديرة''، و عم صالح حزين قريبنا، ما سمعوه ألف مرة، ورددوا مثلها في قعدات أخري : لم يكن جدي حزين أغا سوي فلاح شاب، يملك بضعة قراريط بجوار الشيخة مريم .. يتقن عزقها و تنقيتها من العُلّيق و النجيل و الرجلة، و تسبيخها بالسباخ المتكدس و المتكلس في حوش البهايم بالحجرة المجاورة لحجرة نومه في بيته بقلب العجميين : منطقة المنشية .. و لأنه فلاح قراري فقد حفظ موعد ري قراريطه بالساعة و الدقيقة، علي الرغم من أن المواعيد تتبدل ما بين الصيف و الشتاء .. لكنه يقلّب ساعة قلبه في داخله لتنضبط علي موعد ري الأرض : أحياناً بعد العشاء و أحياناً قبيل المغرب و أحياناً بين منتصف الليل و تسّحب الفجر إلي الكون، و أحياناً ما بين الفجر و غبشة الصباح .. و لم يذكر أبي أكان جدي يصلي في هذا الموعد الأخير أم لا .. بل إنه لا يذكر الصلاة علي فمه أبداً كطقس لجدي الأكبر .. إن صلاته علي ما يبدو كانت الأرض و حدها . حتى إنه يؤرخ للوقائع و الأحداث في العجميين و في حياته الخاصة بموعد الري في مسري، أو بؤونة، أو كيهك و غيره من شهور العام .يحكي أبي في سهرايته : و يوماً أراد أفندينا الخديوي _ لم يذكر أي خديوي _ تفقد الرعية في البلاد، فهبط القرى و العزب محاطاً بموكب من الكاريتات و الحناطير، تسبقه سبع مهرات، و تلحق به سبع واثنتان عن اليمين و مثلهما عن اليسار .. و كلما مر بفلاح في غيطه سأله : – أنت يا ولد ...؟ ! هرب الولد ! ! أو سقط علي الأرض، أو تماسك بعد اضطراب ورد عليه :
_ نعم يا أفندينا ! ! أنا لم أسرق من غيط أحد، و لا حللت جاموسة أحد ليلاً ! !
_ يا ولد .. لا أقول إنك سرقت .. أقول لك يا ولد : كم عدد الأفدنة و القراريط و الأسهم ؟ ! في هذا الحوض ؟

- القراريط و الأسهم ؟ ! الحوض ؟ ! إنه حوض الشيخة مريم ..
- يا ولد .. أقول كم عدد الأسهم فيه ؟ !
- آ .. آ .. اعف عني يا مولاي ..
- اذهب .. اذهب .. ولد خرسيس غبي ! !

و أصبح كل الفلاحين خراسيس و أغبياء من وجهة نظر أفندينا الخديوي الذي يئس من علمهم ! ! وأوشك أن يئوب مستأنفاً رحلة العودة .. حتى مر علي حزين وهو يفسح الطريق للركب، وحينما وازاه الخديوي، أومأ إليه :

- أنت ولد .. كم عدد الأسهم و القراريط و الأفدنة في هذا الحوض ؟ !
- إنها يا مولاي سبعون فداناً، و سبعة قراريط، و أربعة أسهم .. بعدد ما يحيط بجلالتكم من خيول .
- ولد ليس خرسيساً ليس غبياً .. عفارم ولد .. أنت تعرف أيضاً شهوركم الـــ .. الـــ ...
- القبطية يا مولاي .
- هي .. هي .. اذكرها .. اذكرها ولد ..
- شهورنا القبطية : كيهك و طوبة و أمشير و برمهات و برمودة وبشنس وبؤونة و أبيب و مسري و نسيء و توت و بابه و هاتور .
- أنت ولد غير خرسيس غير جاهل .. فقل لي إذن .. قل لي .. كم عدد حبات القمح في الأردب ؟ ! حينها _ يقول أبي _ أوشك حزين أن يتلجلج، لكن تذكر أن الخديوي لن يحصي عدد حبات القمح في الأردب، و لو أحصاها فقد تزيد عدة مئات أو تنقص فقال بثقة أنها كذا حبة قمح في الأردب _ و كنت أتمني أن يذكر أبي هذا العدد، حتى أفاخر به العيال و نحن نلعب في الجرن . لكن أبي رصد رد فعل الخديوي :
- أنت ولد ذكي، فلاح جيد . . هذا الحوض .. حوض .. حوض ..

_ الشيخة مريم يا مولاي ..

_ هذا الحوض ملك لك و حدك ! !

أصبح جدي أكبر مالك للأرض في العجميين .. و أي أرض .. أنها أخصبها و أقربها إلي الري حتى في وقت النشفة . يواصل أبي حكاية جدنا حزين أغا، وضيوفه منبهرون بعبقريته كما لو كانوا يسمعون بها لأول مرة : كانت الأرض حينذاك تتعرض للجفاف كثيراً من شهور السنة، و عليها ضرائب و جباية لابد أن يدفعها الفلاحون بانتظام .. فمن عجز، دفع بديلاً لها جاموسته أو بقرته أو حماره و من عجز فبيته أو (خصه)، و كم كانوا يعجزون فيفرون من الأرض و البلد كله قبل أن يدفعوها سجناً و جلداً و تعذيباً، فتضم الأرض المهجورة إلي أراضي حزين حتى لم يبق بالعجميين و ما حولها من قري و عزب، فدان و لا قيراط إلا و امتلكه حزين. و مع الأرض النخيل، و الأشجار و الخيول، بل و الناس .. فهم جميعاً لديه إما خدم أو عبيد أو ساسة خيول أو خولة في أراضيه، يقومون علي حراستها، و رعايتها، و بعد زمن كما تعلمون ..

_ نعم نعلم طبعاً .

_ .. أصبح هناك – و قد فسد الزمن _ عائلة الخولي، و عائلة العبد، و عائلة السايس، منتسبين للمهن التي كانوا يمارسونها لدي جدنا الأكبر : حزين أغا .

حتى تلك اللحظة لم أعرف من أبي ولا أمي _ معني مفردة (الأغا) سوي أنها اسم الأب لجدي الأكبر ! ! و لم يرد علي لسانهم، و لا حتى لسان العجوز عبد الغني صاحب التسعين عاماً في رواياته الكثيرة عن حزين أغا، لِمَ حمل هذا " المسمي " ولا من يكون الاسم السابق له . كان العجوز عبد الغني يذكر لي و للعيال الاكبر منى سناً حينما يجلس معنا علي المصطبة ليلاً بعض أملاك حزين أغا، و منها المصبغة التي كانت تمثل أهم " المصانع الثقيلة " في الناحية كلها .. أنها _ كما يقول _ حلة كبيرة، أي إناء ضخم جداً، توضع فيه أطنان من الصبغة، و أطنان من القماش، تغلي، و تتحول إلي ألوان شتي .. فالأزرق منها ملبس للفلاحين، و الألوان الأخرى لغيرهم . و يذكر لنا أيضا(سجن الأغا) في ديوانه، أو بوابته، أو منزله الشاسع القائم علي الأعمدة الضخمة، وعروق الأخشاب السميكة الصلبة .. و السجن فيه حجرة صغيرة خانقة .. كان من حق حزين أغا أن يرمي إليه المخالفين و المجرمين لمدة ستة أشهر .. أما ما زاد علي ذلك فهو اختصاص السلطة الأعلى في العاصمة . و المجرم هو الممتنع عن

دفع الضرائب، أو من يسير راكباً حماره من أمام الديوان : بيت الأغا، أو من يرتدي جلبابا جديداً بدون أن يختم في الديوان .

و يذكر الرجل العجوز _ ما لم يذكره أبي أو أمي، بأن حزين أغا _ و الشهادة لله _ لم يكن يستخدم هذا الحق أبداً، ولا شهد السجن في زمنه أي نزيل، بل كان يعطف علي الغلابة، و يرعى الأيتام و الأرامل . و إن حرص علي تحصيل حقوق الحكومة و حقوقه هو أيضاً منهم .. لكن بعض أبنائه و خاصة طلبه بك و صالح بك حزين و محمود بك حزين لم يكونوا طيبين هكذا، فذاق السجن كثيرون في عهدهم بعد رحيل الأغا .

كل هذا كان جميلاً يا أبي : أن يملك جدي الأرض و العزب و الثراء .. لكن أين كل هذا الآن ؟ ! من حين لآخر ظل السؤال هذا يطارد ذهني، و يطارد أبي كلما أطلقته عليه سواء في جلساته مع ضيوفه، أو انفرادي القليل به .. و لا أجد إجابة .. إننا الآن نعيش في بيت من الطوب اللبن، و لا نملك إلا أفدنة لا تتجاوز أصابع اليد، وليس لدينا حتى حصان واحد . يا أبي .. إنني أري فعلاً هذا الديوان أو البيت الكبير، و قد استأثر به العمدة : علي الصاوي طلبه حزين، و أنا أتردد عليه معك، و مع أخي محمد من حين لآخر ككل المترددين من الغرباء ..و لا أري سوي حصانين اثنين لدي العمدة علي غير ما سمعت من و جود مئات الخيول لدي الأغا، و لا أري الآن من العبيد سوي سعد العبد، و أخيه عثمان العبد، و هما أيضاً يقيمان في دوار العمدة أو الديوان، و أنا مثلاً _ بل أنت يا أبي – لا تنهي ولا تأمر هذين العبدين الأسودين .. و أنا مغتاظ جداً أن أري احدهما _ و خاصة سعد العبد _ يركب حصان العمدة، و يتبختر به في شوارع العجميين و في سوق الأربعاء و يكاد يدوس الناس بحوافره، و أنا _ أنا نسل الأغا _ أسير علي قدميَّ، و لا يترجل لي هذا العبد .. أين إذن ذهب الثراء، و أين نصيبنا من الخيول و البيوت و الأراضي ؟ ! حتى العزبة الوحيدة التي ظلت حاملة اسم حزين يملكها و يقيم فيها محمد مسعود حزين ! ! لِمَ نحن هكذا و غيرنا كذاك ؟ !

_ يا بني أنت أخذت من الأغا أهم ما لديه : اسمه .. و قد حصلت عليه قبل أن تولد .. فقد كنت متزوجاً من " رقية " أم أخوتك غير الأشقاء، ثم تزوجت بأمك و أنجبت محمداً، و علي الرغم من ذلك كان الناس – و خاصة عمك صالح _ ينادونني باسمك

و يقولون " أبو حزين " حملت أنت هذا الاسم بعد مولدك.. و احمد ربنا انك لم تكن عبد الله، أو صلاح أو عتريس !! و كان من الممكن كذلك أن يقع اسم حزين من نصيب احد أخوتك الآخرين ! ! أحمد ربنا يا بني ! !

- علام أحمده ! !
- علي .. علي .. يا ولد لا تجادل كثيراً و دعنا نكمل حديثنا .. واخد بالك يا رشاد .. الرجال ليسوا بالشكل بل بالفعل ..
- صدقت .
- لقد سمعت من عبد الواحد الشجيع ...
- و ما أدراك ما عبد الواحد الشجيع ! !
- طبعاً .. أنهم ذهبوا كرجال ليل إلي إحدى القرى لسرقة مواشي : بقرة و ثلاث جاموسات، و كان الذهاب إلي القرية عبر قنطرة طويلة علي ترعة واسعة استغرق الوصول إليها ساعتين سيراً علي الأقدام .. و بعد أن وصلوا البيت المقصود، و نقبوا الحائط الموصل إلي حوش البهايم، استيقظ أهل الدار، و تجرأوا علي عبد الواحد و رجاله، و كان منهم واحد أقرع، و قرعته (فاقعة)، ليس بها شعره واحدة، وتشبه مؤخرة القرد، و طوال الليل كان عبد الواحد مشمئزاً منه،

و يخشى العدوى، و يبتعد عنه .و بعد أن استيقظ أهل البيت أطلق رجال الليل عدة أعيرة نارية في الهواء لتخويفهم، و تمكنوا من الخروج من المنزل سالمين .. لكن أهل القرية جميعاً استيقظوا، و بدأت المطاردة، حتى وصل رجال " المنسر " إلي تلك الترعة الواسعة، و الالتفاف حولها أو السعي ناحية القنطرة كان يعني أن أهل القرية سيدركونهم، فقفز رجال عبد الواحد، في الترعة سابحين،و بقي هو علي الشاطيء في حالة كرب، فأمامه الغرق، و هو لا يعرف السباحة، و خلفه قرية بكاملها توشك أن تقتله أو تمسك به، أو يقتل هو بعضها .. و لم ينقذه إلا أن تنبه هذا الأقرع لغيابه، فعاد من منتصف الترعة سابحاً إليه، و حمله علي ظهره، فكان فم عبد الواحد ملتصقاً بقرعة الرجل .. حينها – كما روي لي _ كانت هذه الصلعة أشهي من طعم الزبيب !!

وعم صالح كان حافظاً كذلك لحكايا الليل و رجاله، فيروى في هذه الجلسة،
– و كل الجلسات الرجالية عن الليل و رجاله، غير جلسات النساء : عن العفاريت و الجن.. قال :
_ معرفة الرجال كنوز .. لكن ليس كل الرجال .. لابد من الكتمان للسر، و ستر عيوب الرفاق .. لقد كنا جالسين يوماً مع أخي المرحوم مصطفي محمود، و أراد أن يختبر كتمان رجاله و حفظهم لأسراره، فتظاهر بالنوم، و أطلق ضرطة مسموعة .. فلم ينشغل بها أحد و لا أبدي أية مشاعر إلا واحد فقط أطلق ضحكة مدوية ! ! حينها فتح المرحوم مصطفي عينيه و قال : خذوه .. فأخذه بعض رجالنا و قتلوه ! !

علي مصطبة ستى " منيرة " جدتي لأمي، تحلقنا أنا و محمد أخي و عيال آخرون حول عبد الغني العجوز . و قد جلس مرغماً بعد أن أخفينا عكازه حتى لا يذهب لصلاة المغرب و يتركنا .. بحلق في وجهي و قد تلونت البحلقة بالسخط ثم مالت إلي الابتسام .. و قال :

_ أنت شقي، عفريت مصور .. تذكرني بجدك الرابع محمود بك حزين .. أدركته قبل وفاته بسنوات .. فيك شيء منه .. العناد، و نظرة الدهاء ! !

- نعم يا عم عبد الغني ؟ ! دعاء ؟ !
- لا .. أقول دهاء .. دهاء يا ولد .. و اظنك ستكون مثله في كبرك أيضاً : رجلاً مزواجاً، تحب _ أقصد – يحب النساء .. تزوج منهن العشرات، ما بين البيضاء و الرمادية و القمحية ...
- .. و السوداء !
- سوداء !! كان يكره السوداوات .. علي الرغم من أن أباه الأغا تزوج بعضهن، ضمن تسع وتسعين امرأة تزوجها .. و كان حزين ينجب طفلاً واحداً من كل امرأة ثم يطلقها _ مخلّفاً لها بيتاً، و إماء، و أرضاً تنفق منها علي نفسها و ابنها .. أنتم يا أولاد لا ترون أبناء حزين أشقاء أبداً، و ربما اختلف بعضهم في شكله حتى نري مثل مسعود بك أسمر اللون، بما يناقض أشكال أخوته الآخرين : محمود و صالح و طلبه و أمين و المصري ...
- المصري ؟ !
- نعم كان المصري الأخ غير الشقيق لجدك محمود .. و حمل اسمه هذا لأن أمه كانت من مصر المحروسة : عاصمة البلاد .. فظلوا يطلقون عليه مسمي ابن المصرية، حتى تحرف إلي المصري، ولا نعرف اسمه الأصلي . الخلاف يا أولاد بين محمود و أبيه أن محمود كان مبذراً مبدداً لأرضه .. الفدادين الستمائة التي ورثها باع أكثرها علي النسوان، و كلما تذوق واحدة انفتحت شهيته علي من تناقضها : طولاً و عرضاً و نحافة و سمنة .
- كيف يضيع ستمائة فدان علي النسوان – ؟ ! حتى لو أعطي كل واحدة منهن فداناً – فهل يعني هذا أنه تزوج ستمائة امرأة ؟ !

- و الله يا بني هذا ما قيل لنا، و لكني أتذكر أنه حينما مات _ و كنت صبياً واعياً _ مات عن أرض و دور و بهائم و خيول لا حصر لها .. لا اعرف أين ذهبت ! و قالوا لنا أن الفلاحين الخبثاء كانوا يخدعونه فينتظرون عبوره أراضيه، و يرتمون تحت أقدامه شاكين الجوع و المرض، فيمنح هذا فداناً و ذاك نخلات، و أخري جاموسة .
- هذا سبب من أسباب ضياع ثروة جدي محمود .. فأين ذهبت ثروة طلبه بك مثلاً .. و كان أغني أخوته
- كان الأغنى فعلاً .. لأنه الأكبر سناً، و حينما مات أبوهم الأغا تكفل كل ابن أكبر بأحد إخوته الصغار، فضم إليه ميراثه، و بعد أن كبر منحه ما منح وضن عليه بما ضن .. و بقي طلبه هو الأغنى .. لكن أكثر ثروته ذهبت في اتجاه آخر: الفخر .. في كل موسم كان يتردد عليه الشعراء المداحون يقيمون لديه أياماً و أسابيع، و يطرونه و العائلة، و يجزل لهم العطاء، و يعودون محملين علي البغال و الجمال و الحمير مما سخت به يد طلبه بك . و ظل الحال هكذا حتى لم يبق لديه في الدار ما يمنح، حينما ورد إليه وفد الشعراء .. فاستخرج من فرن الديوان أرادب قمحٍ، كان الخدم يحمصونها لطحنها و خبزها، طعاماً لآل البيت من أبناء طلبه و خدمه .. فأخذها الرجل من الفرن و قدمها للشعراء و الضيوف، و بقي أهل البيت بلا طعام عدة ساعات . حتى فوجئوا بعدة أحمال من الجمال ترد إليه من " أبو جنشو "، من لدي صهره عبد الله بك.
- لكن أحفاد طلبه بك مازالوا أثرياء .. و ليسوا مثل أحفاد محمود بك .
- أدرك الصاوي طلبه انفلات يد أبيه، فاستبقي عشرة أفدنة لم ينلها البيع، و هدد كل من يقترب منها بالقتل، فلم يشترها أحد، حتى مات طلبه، فأضاف إليها الصاوي أراضي أخري بطرق شتي .. إنه وارث العمودية و في يده الأمر و النهي، فاسترجع بعضاً مما ضاع، و الأمر نفسه فعله أحفاد صالح حزين .. أما أنتم أحفاد محمود حزين فتميلون للدعة، و تأبون ظلم الناس لاسترجاع أملاك أجدادكم .. ألا يرضيكم هذا المديح لأسترجع عصاتي التي أتوكأ عليها .. أين عصاتي . يا خبثاء ؟ !

ضاعت الجملة الأخيرة لعبد الغني العجوز في صخب الأطفال القادمين في صف متتالين، يضع كل منهم ذراعه علي كتف رفيقه الأيمن و الأيسر .. و ينشدون :

يا لاعبين كل ليله و ليله
ما فاتش عليكم عجيله عجيله
فاتت علينا بشعر طويل
تحل و تربط بالمنديل
و المنديل تمر حنة
آخد منه و اتحنى
يا لاعبين كل ليلة وليلة

يبدأ الصف غالباً بطفلين عقب أذان المغرب، و كلما مر ببيت في القرية " أندلق " إليه طفل أو أطفال من بابه، حتى يتضخم العدد، فلا يسعنا سوي جرن عمي صالح . نداء اللعب هذا شدنا من فوق مصطبة ستي منيرة إلي عمق الشارع، و ذبنا في ثلة الأطفال، و نشيد اللعب، و بقيت صراخات عبد الغني العجوز و مطالباته باستعادة عصاته حتى يتوكأ عليها إلي منزله، مجرد استغاثات غارق .. ما لنا نحن و للعواجيز و لعصيهم ؟ !!

ألعابنا في جرن عمي صالح درجات و ألوان، من حيث العنف و اليسر .. قد نبدأ بالاستغماية، بأن " يركي " أحدنا علي نخله أي يسند وجهه واقفاً علي نخله مع إغماض عينيه وسترهما بيديه .. ثم يفر جميع الأطفال من حوله مختبئين في تلال القمح أو خلف النورج أو وراء نخلة أو شجرة في منطقة الجرن و دائرته .. ثم يطلق " المستغمي " صيحة عالية :

_ خلاص ؟ !

فإذا و جد رداً :

_ خلاص .

انطلق جرياً في كل اتجاه ليقبض علي أي من العيال، وبمجرد تركه للمكان، يسرع إليه الأطفال حتى يلمسوه، بينما يحاول هو الإمساك بأي منهم .. فمن يقع في يديه " يركي " و تستمر اللعبة و قتاً ما حتى نملّها .

قد نتجه إلي لعبة " نط الكلاب في الشوك " بأن ينحني أحدنا مسنداً كفيه علي ركبتيه، ثم يقفز من فوقه كل واحد من المشاركين في اللعبة، شريطة ألا يلمس رأسه أو مؤخرته فإن " وقع " أي لمسه ركع مكانه .. و قد تتطور اللعبة فيركع اثنان متجاورين، و علي المتسابق اجتيازهما قفزًا . و العيال الكبار يرصون ثلة راكعين ويستطيعون القفز عليهم .. و ربما أخذت شكلاً ثالثا بان يركع أربعة أطفال مثلا و بين كل منهم مسافة، فيقفز المتسابق من فوق هذا ثم ذاك حتى يصل إلي آخرهم بدون لمس، وبما يشبه قفز الحواجز في سباقات الخيول .

اللعبة قد تعنف و تشتد فنعلب " حرب ايطاليا " فنقسم فريقين متصارعين مصر و إسرائيل .. و كل منا يخلع فانلته أو يمسك عمامة، و يملأها بالتراب: و يربطها حتى لا يسقط منها، و يمسك من الأطراف المتدلية ليضرب بها أعضاء الفريق الآخر .. و قد تحدث خدع " حربية " و خيانات، فيضع أحدنا طوبة داخل التراب، المربوط، فمن سقطت عليه الضربة كانت خارج احتماله، ولابد أن يسلّم .. ولا أريد أن أصم نفسي بارتكاب هذه الجريمة الحربية العيالية ! ! !

حينما نرغب في الراحة من الحرب نسعى لاختبار قوتنا بشكل آخر بأن " نخابط " بعضنا . إنها لعبة تشبه المصارعة الحرة، لا ضرب فيها، بل الرغبة في إسقاط الخصم أرضاً بعد أن " يتملك " كل واحد من رفيقه ملكة خاصة : بأن يحيطه بذراعيه من تحت إبطه و تحت رقبته .. ثم تطلق إشارة البدء، فيهز كل واحد منهما الآخر و يتدافعان، و يستخدمان أرجلهما في " شنكلة " بعضهما حتى يسقط احدهما أرضاً فيكون النصر المؤزر ! ! و لا تخلو هذه اللعبة من خيانات .. فقد تتسلل رجل أحد الأطفال المتفرجين إلي رجل أحد المتصارعين فيتعثر فيها و يقع ! !

لا نعرف كم مر من الليل، و كم بقي، و لكن الإجهاد قد يسوقنا إلي الاستراحة مع لعبة " السيجة " بأن نخطط الأرضية بالتراب، و نجلب حصيات صغيرة ننقلها في خانات بعينها، بين لاعبين اثنين، فيما يشبه الشطرنج .

ووسوسة الشيطان ربما حَضَرتنا ليلة، في أثناء نضج البلح، و حينما يضيق بنا الجرن في الليالي المقمرة .. فنتجه _ الشجعان منا _ إلي الغيطان المجاورة، و ندفع أكثرنا شجاعة لصعود نخلة محملة بالرطب، ليهز لنا سباطها، و نحن نجمع التمر من الأرض . ويراقب بعضنا صاحب النخلة، قد يكبس علينا . و بعد أن يهبط الولد نتقاسم معاً ما جمعنا من تمر، نأكل كل ما نجمع و لا نترك أثراً حين نعود لبيوتنا، ولا يستطيع أحدنا أن يعترف بمثل هذه السرقة لأبويه .

تسلَّطنا علي نخلة " قرني " عدة ليالٍ حتى أوشكنا أن ننفضها مما تحمل، و أدرك الرجل فعلتنا الليلية، فتربص لنا في غيط الذرة المجاورة،و بعد أن صعد احدنا، هجم قرني علينا و بيده " شكل حطب " يلسع الجلود، فهربنا _ و لم نتمكن من تنبيه صاحبنا أو إنقاذه، فبقى فوق النخلة مذهولاً لا هو استطاع الصعود إلي السماء، ولا الهبوط إلي الأرض، و بقي له قرني رابضاً تحت النخلة كالأسد الجائع .. ثم صرخ فيه شاتماً بأبشع ما يشتم به المرؤ : بأمه :

_ انزل يا بن فكرية العمشه ؟ .. انزل و إلا طلعت رميتك من فوق ! !

و يخشى قرني أن يسقط الولد فعلاً من فوق، كما أنه لا يتنازل عن معاقبته علي أفعالنا نحن جميعاً .. و ظل " يدحلب " الولد واعداً إياه ألا يضربه، حتى إذا اقترب من الأرض انهال قرني علي ساقية العاريتين بشكل الحطب، و حاول الولد الصعود فأمسكه من قدمه، و ظل يلسعه بسرعة خمسين ضربة في الدقيقة، ولا توقفه صرخات اللص الصغير .. و نحن عن بعد نتأذى لسقوط رفيقنا، و نعجز عن تخليصه .. و أخيراُ أمسكت وحدي حصيات في يدي، و اتجهت إلي قرني، ففعل سائر الأطفال و في لحظات سقطت عليه أمطار الطوب فهرب منها مهاجماً إيانا، و تمكن الولد من الهبوط، ثم التفت إليه قبل أن يطير في الهواء صارخاً :

_ أنت اللي ابن فكرية العمشة !!

مملٌّ جداً حمل آنية من الملوخية الساخنة، من بيتنا إلي بيت جدتي منيرة و أمها " ألماظ" التي لم أرَ لها بصراً منذ تفتحت عيناي . حلة الملوخية تلسع يدي، و حثتني أمي علي تسليمها بأسرع وقت للجدتين إنه وقت الغداء . ركنت " الحلة " علي طوف _ أي سور _ الحقل حتى تبرد .. و حرصاً علي سرعة تبريدها رفعت الغطاء .. فانطلق في أنفي بخار طشات التقلية، و لمعت قطع اللحم في عيني .. مددت أصابعي محدثاً نفسي : بالهنا و الشفا يا منيرة أنت و ألماظ .. أمسكت إحداها و رأيت أن بها بعض الدهن، و هما عجوزتان لا تحبان الدهن .. فرميت قطعة اللحم في .. فمي ! ! حرصاً علي صحة الجدتين العجوزتين .. ثم _ و بدون أن أقصد أبداً _ تسللت يدي اليمني إلي قطعة أخري رأيت أنها أكبر من طاقة الجدتين علي المضغ و الالتهام . لم تبق سوي قطعتين أخريين آثرت ألا تبقيا و حيدتين . فأنقذت وحدتهما ..كم كنت أحب منيرة و ألماظ ! ! عليّ أن أتذوق الملوخية لاختبر نضجها و اعتدال الملح بها و دقة تخريطها .. رشفت رشفة

و رشفات، و لم يوقفني إلا تمسح قطة سوداء قاتمة فيّ .. أهي عفريت القيالة كما قالت لي أمي ؟ ! لقد دفعت القطة فسقطت من علي الطوف، و لم تشل يدي ولا رجلي، بل أنها لم تعضني و تدافع عن نفسها .. كيف يكون هناك عفريت قيالة أو غير قيالة بهذا الخنوع ؟! حملت حلة الملوخية فبدت خفيفة في يدي، لم يبق منها إلا القليل .. و نظرت علي بعد خطوات إلي أحد أزيار السبيل فكان فيه الحل : ملأت كوز ماء، و عبأت الآنية

و رججتها، فكانت جميعاً ملوخية بإذن الله !!

دخلت بوجبة الغداء " الدسمة " إلي جدتي، فوجدت ألماظ جالسة علي الكنبة فبادرتها قبل أن تسألني عن نفسي :

_ أنا حزين يا ستي ألماظ .. و هذا الغداء أرسلته أمي لك و لستي منيرة .

_ ربنا يطول لنا في عمرها .. بنت حلال مصفي .. لا نعرف ماذا كان مصيرنا لولا أمك الطيبة الحنون العـــ....

و قبل أن تكمل " العطوف " كانت حلة الملوخية أمامها علي الكنبة، و قد تحسست الغطاء و رفعته، ثم راحت تدس أصابعها في الملوخية و تحاول " حصر " قطع اللحم .. فلم تعثر أصابعها إلا علي الخيبة .. فتغيرت المفردات علي لسانها بقدر انقلاب وجهها :

_ هكذا أنت يا بنت محمد عبد الفتاح جبر .. ضنينة بخيلة .. حتى قطعة اللحم تستخسرينها فينا .. ملوخية .. ملوخية قرديحي يا بنت محمد جبر ؟ ! يا وكسة ما أنجبت يا بت يا منيرة ! !

كانت " البت " منيرة هذه في حوالي السبعين من العمر .. أما ألماظ نفسها فلا أحد من الأحياء يعرف لها عمراً، حتى عبد الغني العجوز .. يقال إنها أكملت مائة عام، و يقال بل زادت عليه عقداً، و يقول آخرون إنها شهدت مذبحة المماليك، و عاصرت " هوجة " عرابي، و شاركت في تحريض العرب البدو علي أطراف الفيوم، و هي منتسبة لهم _ في ثورة ١٩١٩ _ بعد أن راسلها حمد الباسل .. و كانت تمتطي مهرة بيضاء، و تتجول في القرى و العزب لحشد الناس خلف زعامة حمد الباسل .. و لم يكن يتردد حينها _ كما يقال _ علي لسانها أو لسان الناس اسم سعد زغلول، ولا عرفه أكثرهم . و لم أسمع منها بل سمعت من آخرين أن ألماظ حشدت مائة جمل محملة بالمؤن والرجال، و دفعت بهم إلي مصر المحروسة لإثارة المشاكل ضد الإنجليز، و الاحتشاد في الميادين و الشوارع، و لإلقاء الخطب في ناس المحروسة حتى يتحركوا لنصرة حمد الباسل و من معه ضد الإنجليز . ثم إنها كانت تجلس ليلاً مع الرجال الأشداء، تخطط لهم إعداد الكمائن ضد الإنجليز، و مواقع قطع السكك الحديدية، و الهجوم علي أقسام الشرطة .

ألماظ الآن تشتم أمي، و هي " تلغوص " بأصابعها في الملوخية بحثاً عن قطع اللحم :

_ طالعة كأمك يا بنت منيرة .. شحيحة ..و عمري ما رأيت منك يوماً حلوا ! ! و من أين لك بالعطف علي جدتك و رعايتها : أمك تنغص عليّ حياتي، و تصر أن أستحم كل يوم .. و أبوك _ الله يرحمه، و لا يجوز علي الميت إلا الرحمة _ لم يكن يحبني .. و لم يكن يحلو له الصلاة إلا و أنا في بيته .. طوال الوقت يصلي .. و كأن الوحي ينزل عليه بقرآن جديد ! ! ملوخية قرديحي يا بنت محمد و منيرة ؟ !

_ يا ستي لِمَ كل هذه الشتائم في أمي ؟ ! أليست حفيدتك ؟ !

_ هيه .. أنت مازلت جالساً هنا .. هل سمعت كل ما قلت ؟ ! يا عيب الشوم !!

_ أنا .. أنا لم أسمع إلا قليلاً من الشتائم .. لا تشغلي بالك يا ألماظ ..

_ ألماظ في عينك و عين أمك ! !

_ و هذه شتائم جديدة ..

_ إياك أن تخبر أمك أو ستك منيرة ..

_ لن أخبرهما ..

و تدخل منيرة و قد شمت رائحة الملوخية ..

_ أنتم طبختم اليوم ملوخية ؟ !

_ نعم يا ستي .. ملوخية باللحم .. و ها هي ذي الحلة أمام ستي ألماظ .

تمتعض ألماظ و توشك أن تنفجر ..

_ ملوخية باللحم ؟!

_ ستي ألماظ .. هل نسيت .. ؟ !

_ لا .. خلاص يا عفريت يا صغير ..

ومع انشغال منيرة بحلة الملوخية، ألمح " سرباً " من العيال يمر بالشارع، أتسلل وراءهم .. و لا أعرف إلي أين هم ذاهبون لكني لمحت في مقدمتهم أخي محمداً .. و حينما انتهت مسيرتهم إلي الترعة التي كنا نسميها (بحراً)، لاتساعها عدة أمتار عرضاً، بحيث لا تقل عن خمسة أمتار في أضيق مقاطعها، جلست علي طرف الغيط منتظراً، ما يفعلون، حتى خلعوا جميعاً ملابسهم و قفزوا في الماء من فوق " الهدار " و هو ما يشبه السد للتحكم في كمية المياه المنحدرة، و يرتفع سطحه الأسمنتي عن سطح الماء حوالي أربعة أمتار .. و يصعد الأطفال إلي قمته، ليقفزوا في الماء واقفين منتصبين .. ثم يسبحون أو يغطسون .

بمجرد أن قفزت الأجسام الصغيرة إلي الماء، بدأت أخلع ملابسي و أنادي علي أخي، فيما يشبه طلب الإذن لي بالهبوط .. فانزعج حينما رآني ..و حذرني من المغامرة .. هددته بإبلاغ والديه .. فصمت و رميت نفسي في الماء بعيداً عن الهدار، بل من

أقرب نقطة علي الشاطيء إلي المياه . و رحت أتلمس قاع البحر بأطراف أصابعي .. لم أغرق، و لم أستطع السباحة ..

بعد زمن خرج الأطفال و أنا معهم، و لبسنا ملابسنا، و كنا نخلعها لنبدو كما ولدتنا أمهاتنا .. ثم رأيتهم يطمسون أرجلهم و أيديهم بالتراب، رغم سخونته الشديدة، ويجلسون تحت الشمس الحارقة رغم و جود ظلال الصفصاف و الجزورين علي أطراف الترعة .. لم أفعل مثلهم .. فلست مقتنعاً بهذا المسلك .. لكن التفت إلي أخي و حمل بعض التراب و دعك يدي و رجليّ به، و إن تركني جالساً في الظلال .

_ لِمَ هذا التراب يا محمد ؟!

_ حتى تخفي آثار الاستحمام عن أعين والدينا .. ألا تعلم أننا سننال علقة ساخنة إذا علما بنزولنا البحر ؟ !

_ و ما يضرهم في هذا ؟ !

_ يخشون علينا ضربات الشمس و البلهارسيا .

البلهارسيا كانت في انتظاري أنا وحدي علي شاطيء الترعة في تلك اللحظة !!

قعد الشيخ عبد الرشيد _ الفِقي _ علي أقرب حصيرة بالمنزل، بعد أن خلع بلغته ترابية اللون، منحوتة الكعبين، و لم يلتفت يميناً و لا يساراً و هو يجوّد الربع من القرآن .. لا أحد جلس بجواره ولا قريبا منه يستمع إليه، كأنه شيء من أشياء الدار لا يلتفت إليها .. يأتي من حين لآخر، يقرأ بلا مستمع، و أراقبه ولا أدري لِمَ يقرأ ما دام لا استماع ؟ ! و لو نوي أحد الاستماع فهذا صوت غير مغرٍ، ما يتخلله من نحنحات و تنخمات أكثر من عدد المفردات !! هنالك شيوخ آخرون في البلد يترددون علي الدور يقرأ ون القرآن مثله، و أصواتهم تقبل أو يحتفي بها .. لِمَ لا يجلبهم أبي للقراءة ؟ ! قالت أمي إن هذا الفقي غلبان، و قد أهَّل نفسه علي تلقي كيلتين من القمح و مثلهما من الذرة، و بعض العطايا الأخرى في كل موسم زراعي .. و دخل بيته كله من هذه المزروعات .. و لو استغنينا عنه فسيفقد مصدر دخل و قد يجوع أولاده .. و عبد الرشيد كذلك شديد التهذب و الخجل، ليس متبجحاً يرصد عورات البيوت في خروجه و دخوله كالآخرين .. وكرمضان المزين .

و لا يرد إلينا الشيخ عبد الرشيد إلا و تذكرت رمضان المزين ذاك .. لا لأن شبهاً بينهما، بل لأن كل التناقض يكتنفهما .. رمضان المزين فارغ جوفه من آية واحدة، ممتليء بالثرثرة و الأكاذيب و التقولات . ملامح وجهه توحي لك بملامح الموت نفسه كأنه خرج مطروداً من قبره فوراً : طارده الأموات الآخرون بعد أن أوقع الفتنة بينهم ! !

و هوـــــ مع هذا جميعاً _ لص بدون سرقة .. إنه ينقل تفاصيل البيوت، و مداخلها و مخارجها و ثغراتها إلي الأشقياء اللصوص، ليتمكنوا من السطو عليها ليلاً بأسهل طريق ..

لماذا يحتمل أبي برود رمضان المزين، و كلاحة و جهه، و حقارة مخبره ؟ ! لم يكن أبي يدخله الدار، بل يشده من قفاه كلما جاء ليجلسا تحت النخلة أو شجرة المشمش، و يتداعى إليه آخرون " لأخذ ذقنهم " و جز شعورهم . و أردت أن أعثر علي سبب في استبقائه حلاقاً للأسرة.. فعلمت أن أحمد مرزوق أكثر منه " تلامة " و أن الحشرات تسير في ركبه و عدة حلاقته أينما ذهب بحماره .. أما هذا الحلاق _ رمضان _ فكان أكثر تطوراً منه : يركب دراجة بدل الحمار، و يسن موسيه علي مسن حجري

بدلاً من الجلدة، و يحمل آلات حلاقة في حقيبة خشبية، لا جلدية مزيته كمرزوق .. لكن آخرين كانوا يحرصون علي مرزوق .. إذن هناك أسباب أخري لم يعلنها لي أبي .. حرصت علي أن أتسقَّطها بأذني .. جلست مرة و مرات بجوارهما قبل أن يتواتر الآخرون و خاصة عمي صالح، فإذا بالحلاق يصف لأبي قوام البنت فلانه بنت فلان، و رشاقة أم فلان، ودلال أخري .. و قد كان ظني أن الأمر طبيعي، حتى تغير هذا الظن بعد أن رصدت انقطاع الكلام، و تحوله فجأة إلي شئون أخري حينما يقبل أحد الرجال و يجلس

معنا .. هذا الحديث عن النسوان، و بهذه الطرائق إذن أمر غير معتاد .. أهو عيب ؟ ! أهو مخيف ؟! أهو سيء ؟ ! إنني أجلس مع أمي و أتحدث ليل نهار، و مع جدتيَّ : منيرة و ألماظ، و تحملني زوجة أشرف صديق و تقبلني بعمق في شفتي، و لا أحس بشيء سوي القرف ! ! أهما يقرفان من الحديث عن النسوان حينما يقبل إليهما ثالث ؟ ! لِمَ لا يقرفان و هما وحدهما ؟ ! يتسرب إليَّ مَسّ من هذا القرف حينما يجلس معي " الواد سلامة " الأكبر مني بعام تحت الشجرة بالقيالة في غيطنا، ثم يمد يده إلي عضوي الذكري _ الذي أتبول منه !! ـــــــ و يداعبه بأصابعه، ثم يقول لي : سأعمل الآن امرأة تلد، و أنت الدكتور تولِّدها .. ثم ينبطح الولد علي بطنه، و يرفع جلبابه فتبدو مؤخرته البيضاء منفتحة أمامي .. لا أفعل شيئاً سوي أن أقف و أشوطه بقدمي فيها علي الرغم من أنها لا تشبه الكرة !!

أكثر من مرة يكرر سلامة حالته هذه، و هو لا يلد أبداً .. لكني بعد عدة مرات رحت أتحسس مؤخرته، و أتخلي عن حالة القرف .. و عرفت علي وجه التحديد دورها _ المؤخرة _ بعد أن اجتمع عدة عيال _ و منهم أخي محمد _ علي سلامة في بيت مهجور تحت الإنشاء، و قد انحني الولد وراح العيال يرفعون ثيابهم و يأتونه من دبر، واحداً وراء الآخر .. و جميعهم كانوا اكبر مني سناً .. إذن لهذه المؤخرة " السلامية " دور آخر غير لطمها أو ركلها .. ووقفت أنتظر حتى يحين دوري لأفعل فعلة سائر الرفاق .. و فجأة سمعنا جعيراً و شتائم خارج المنزل، فخرجنا وجلين، فإذا بوالد سلامة أمامنا يصرخ مهدداً إيانا ..

جرينا جميعاً في الغيطان _ و كل عيل في اتجاه .. فتشتت الرجل .. بمن يبدأ و بمن يمسك ممن وطئوا ابنه .أما أنا فقد حددت هدفي هذه المرة : مؤخرة سلامة .. فرحت أسرع خلفه صارخاً : أنا عايز حقي !!!

لم أنس بعدها لأخي محمد أنه نال حقه بنفسه، و تركني ضائعاً ألهث وراء ما أريد .. و قد خذلني مرة قبلها حينما التحق بالمدرسة الابتدائية و حده، و تركني بالمنزل .. و قد التأم شمل الأسرة ومحبيها يهنئون بهذه المناسبة، و يتفرجون علي المريلة و الحذاء " الكاوتش " إنتاج " باتا " و المخلة القماش التي خاطها له عمي فانوس الخياط، و أقسم أن تكون هدية منه لمحمد التلميذ .. لم يشفع لي بكائي في أن أذهب معه إلي المدرسة .. بينما اقترح عمي صالح أن يقوم بمهمة تعليمي الشيخ عبد الرشيد، يعلمني فك الخط و الهجاء .. فرأيت أخيراً أن للفقي مهمة أخري في منزلنا يمكن القيام بها .. ووجد هو أن " زبوناً " دائماً في البيت سيجلس معه و يتتلمذ عليه، وسيزيد جعله في كل موسم حصاد من كيلتين إلي ثلاث كيلات .. و طور الرجل مشروعه ليجلب أطفالاً آخرين يجلسون معي في منزلنا لتلقي معارف سيدنا : آيات من القرآن الكريم و الحروف الهجائية و بعض الألفاظ القليلة التي نقرأها و نكتبها .. و كانت في البدء لعبة مسلية بالنسبة لنا .. و صدقت أنها مقدمات للمدرسة .. و راح الرجل يأخذ أمره بجدية : يأتينا كل صباح و قد مر علي بيوت الأطفال الآخرين، و جرهم من أيديهم إلينا .. و يجلس معنا ساعات لا أدري كم .. تتخللها أكواب الشاي : الدور الأول و الثاني و الثالث .. و علي الرغم من ذلك كان يغفو سيدنا من حين لآخر .. و بعد أن اعتاد الرجل علي هذه " الشغلة " الجديدة و سعد بها، كنا نحن قد مللناها .. أنها تحرمنا من اللعب وقت الصباح، خاصة أنني بدأت أجهز لامتلاك (طارة) أردح بها في الطريق .. الطارة هذه هي إطار لمنخل تخرم و فسد .. و كنا نأخذها من أمهاتنا و ندحرجها أمامنا بسرعة في الطريق دافعين إياها بساق البوص بعد أن نثنيه علي شكل مثلث، و نجمع طرفيه في يدنا بينما ندفع بالجزء المستقيم منه هذه الطارة .. جهزت منخلاً لنفسي بأن رحت أخرمه أولاً خرقاً صغيراً جداً، لا يكاد يري لأمي .. و بعد يومين خرقاً آخر بجواره، ثم أصل الخرقين معاً، و أخيراً أدمر النسيج تماماً، و تري أمي الأمر طبيعياً فآخذ منها هذه الطارة ..

أريد أن أجربها الآن .. و سيدنا يقف حائلاً دون ذلك .. فوقت الصباح يستهلكه تماماً، و في القيالة إما أن ننام أو نتمكن من الهرب إلي البحر للاستحمام .. و بالليل لا نستطيع أن " نردح " بالطارة .. لابد من التخلص من الشيخ إذن، و أوحيت إلي العيال بحيلة : سوف نربط طرف ثوبه في رجل الكنبة أثناء نومه . و فعلناها و جلسنا هذه المرة شديدي الالتزام و الإنصات لسيدنا بشكل جعله يرتاب فينا .. لكنه واصل درسه، حتى انتهي و هب من فوق الكنبة فشد جلبابه بقوة، وقع علي إثرها علي وجهه الذي غرق في الدماء، و هربنا نحن إلي خارج البيت !!!

لم يشغل أبي نفسه بهذه الواقعة، و إن لاحظت أنه حينما رآني مساء اليوم نفسه راح يبتسم .. بينما راحت تقرعني أمي :

_ إنه حامل كتاب الله .. كيف تؤذيه ؟! و هو كذلك ضيف في دارنا ينبغي عليك حمايته و حسن ضيافته . لقد باع أجدادك آلاف الأفدنة علي الكرم .. و كانوا يحمون من يستجير بهم .. و أنت الآن تغضبهم عليك في نومتهم ..

_ و أين ينامون الآن ؟!

_ جدك حزين أغا مدفون في مسجد الشيخ العجمي الذي تحمل بلدتنا " العجميين " اسمه .. أما محمود حزين و ابنه محمد _ جدك المباشر _ فهما في قبور القرية التي ستمر عليها حينما تلتحق بالمدرسة . و هي القبور نفسها التي دفن فيها أبي محمد عبد الفتاح جبر و أبوه و جده ..

_ و مالي أنا بمحمد عبد الفتاح جبر ؟ !

_ هو جدك من ناحية الأم .. فأجدادك من ناحيتي هم عائلة جبر .. و قد كانوا من المقربين لعائلة حزين .. إذ استنجدوا بهم بعد معارك دموية وقعت بين جبر و عائلات أخري .. و سقط قتلي كثيرون من العائلات المتصادمة مع أجدادي، و كان لابد من أن يثأروا لأنفسهم من جبر، فاضطر عقلاء العائلة إلي إخراج الشباب من الفيوم، و أرسلوهم إلى جنوب الصعيد، أو شمالاً لمحافظات الوجه البحري .. بينما بقي كبار السن والنساء هنا.

_ الم يقتلهم خصومهم ؟ !

_ حاولوا فعلاً الثأر منهم لكنهم لجأوا إلي عائلة حزين و طلبوا حمايتها، فحمتهم عائلتكم، و لم يستطع أحد التعرض لهم .

_ إنهم إذن ضعاف خائفون !!

_ ضعاف خائفون ؟ ! اهكذا تتحدث عن أجدادك ؟

_ أجدادي من أحمل اسمهم : أنا لا أحمل اسم " حزين جبر " بل حزين عمر محمد محمود حزين أغا سنجق الفيوم !! .. و لو كانوا أجدادي لحملت اسمهم !!

_ أنت تحمل اسم الأجداد من ناحية الأب، لا من ناحية الأم .. و هكذا الناس جميعاً .

_ ولِمَ الأب بالذات ؟ !

_ هكذا درجت عادة الإنسان دائماً .. و ربما نحمل أسماء آبائنا لأن آدم خلق قبل حواء، ثم انتزعت هي من أحد أضلاعه، فأصبحت منتسبة إليه، و كذلك انتسب كل الأبناء له.

_ كسروا ضلعاً لآدم ليصنعوا منه حواء !! ألم يتوجع ؟ ! و لِمَ لم يخلقوها كما خلقوه هو بدون الاعتداء علي أضلاع أحد ؟ !

_ أنت طفل مشاغب و كثير الأسئلة .. و أنا لم أكن معهم حينما انتزع الله ضلع آدم و خلق حواء .. هكذا قيل لنا و علينا أن نصدق ما قيل !! و عليك أنت أيضاً أن تصدق أن أجدادك من ناحيتي هم عائلة جبر .. ولم يكونوا ضعفاء حين هجروا البلد بعيداً عن الثأر .. و إلا لما استشهد منهم أبطال في الدفاع عن الوطن .. لقد حكوا لنا عن محمد بك جبر الذي كان أحد قادة الحملة التي أرسلها الخديوي إسماعيل إلي مصوع بالحبشة لقتال المعادين لمصر من الأحباش .. و قد أحسن القتال والهجوم حتى استشهد و لم يستسلم .. بسبب خيانة هيئة أركان الجيش المصري التي كانت تتكون من مرتزقة أمريكان، تواطأوا مع الأحباش لقتل المصريين !!

_ الله يرحمه !!

_ الفاتحة علي روحه !!و غير محمد بك جبر كان جبر الكبير الذي نزح من بلاد نجد مع الهلايل أثناء مرورهم بمصر في الطريق إلي تونس، و كذلك حفيده جبر الصغير، من أشجع الشجعان، و كانا يملكان قوة خرافية .

_ أكانا يستطيعان عبور البحر الذي يستحم فيه العيال، قفزاً .

_ هي ؟ !!

_ لا أظن أحداً يستطع هذا سوي جمال عبد الناصر !!

_ طبعاً يا بني .. الزعيم شخصية عظيمة، و لا يقارن بها أحد .. إنني أحدثك عن عائلتي فقط، لا عن الوطن كله .. و كان من هذه العائلة من منحه الله وسامة و شهامة، فعشقته جنية .. لقد تزوج جدي السيد جبر بجنية اسمها نجفه، كانت تعيش معه في البيت، و لا يراها أحد سواه .. و من حين لآخر تحمله في مقطف كبير و تطير به ليري الآفاق، و تنقله طائراً من بلد لبلد .. و بعد أن يعود من اختفائه، يقبل إليه أصدقاؤه

و جيرانه، فيحدثهم عن عجائب الناس و المخلوقات .. لكنه لا يذكر شيئاً عن نجفه

زوجته، و لا يصرح أو يلمح أبداً بزواجه بجنية،فلو فعلها فسوف تنصرف عنه، و قد تؤذيه .. لقد وفرت له سعة في العيش، في كل شيء، حتى أنه حينما يزوره ضيوف ـــــــ ولم يكن بيته يخلو منهم _ يجلس معهم و فجأة تسقط إليهم مائدة محملة بكل ما لذ

و طاب .. و أحياناً يتشهى الضيوف فاكهة في غير موسمها، فيصفق السيد جبر بيديه، فيهبط إليهم طبق ممتلىء بالفاكهة المطلوبة ..

_ و أين نجفة الآن يا أمي ؟ ! ألا أستطيع رؤيتها ؟ !

_ يا بني كان هذا منذ مائة عام .. و أنجبت من جدنا أولاداً و بنات ..

_ هل مازالوا يعيشون ؟!

_ لا نعرف عنهم شيئاً لأنها اختفت بهم، بعد إنجابهم بسنوات .

_ بدون أن يأذن لها زوجها ؟ !

_ هو الذي خالف العهود .. و من شروط الجنية المتزوجة بإنسان أن يكتم سرها، حتى لا يطَّلع أهلها عليه، فيقاطعونها و يعاقبونها للزواج بإنس من طين .. و قد اتفقت نجفه مع جدي علي ألا يبوح بهذا السر، و اتفقت معه كذلك أن يطرق الباب قبل أن يدخل، حتى لو كانت الدار خالية .. و ظل جدي يحافظ علي هذه العادة : طرق الباب قبل الدخول، حتى دفعه الفضول يوماً لمعرفة ما وراء الباب، فجأة دفع الباب و دخل، و كانت نجفة تجلس أمام الفرن تخبز، و قد مدت ثديها طويلاً إلي فم ابنها النائم في حجرة بعيدة عن الفرن بعشرين متراً .. الثدي يمتد لحماً طرياً من أمام الفرن، مروراً بالصالة، دخولاً إلي الحجرة، ثم إلي فم الطفل .. ما إن شهد جدي هذا المنظر المهول حتى سقط ميتاً .. و اختفت نجفة و أبناؤها للأبد .

_ هؤلاء الأبناء أليسوا أقرباء لنا ؟ ! لماذا يختفون مع أمهم ؟ !

_ نعم هم أقرباء لنا .. لكنهم من طبيعة غير طبيعتنا .. الطين لديهم يمتزج بالنار، و بالتالي فهم قابلون للاختفاء و التشكل كسائر الجن .. و الجن قد يظهر لنا في شكل قطة سوداء لا شية فيها .. و خاصة بالليل، و قد يظهر في شكل ثعبان أثناء صلاة الجمعة، أو ما بين الأذانين ..

_ لهذا لا نضرب القطط السوداء ليلاً .

_ تماماً .. قد تكون جناً يقتلنا .. و الثعابين كذلك قد تكون جناً . و قد حكوا لنا عن صراع عنيف دار بين ثعبانين وقت صلاة الجمعة، احدهما ذكر أسود و الثاني أنثي بيضاء .. و كانت المحاولة المستميتة من الذكر لمضاجعة الأنثى، أي اغتصابها .. و ظلت هي تقاوم، حتى أوشكت علي الانهيار و التسليم، و هنا ظهر أحد الرجال، و هالته اللحظات الأخيرة لهذا الصراع، فما كان منه إلا أن أمسك حجراً ضخماً انهال به علي رأس الثعبان الأسود حتى قتله .. و في لحظة لم يجد الثعبان الأبيض، بل فتاة طاغية الجمال شعرها الأسود منسدل حتى تحت المؤخرة، و قد سبح في الهواء يميناً و يساراً، و عيناها الحوراوان تسحران الشمس و القمر، و صدرها سبحان الله رمانتان نافرتان، أو حمامتان تهمان بالطيران و قد نفرتا من ملابس الفتاة .. كانت فارعة نحيلة الخصر، نبقية الثغر، ملفوفة الفخدين، " مقلوظة " الساقين، يشبه كعب رجلها قمع السكر .. ذهل الرجل، وراح يتلفت يميناً و يساراً و يتصارع داخله شوقه لتأمل هذا الجمال، و خوفه أن يكون الثعبان قريباً منه يؤذيه .. اقتربت منه الفتاه فداخ لعبق عطرها الذي لم يشم مثله قط، وابتسمت فكاد يغشي عليه، و حينما مدت أصابع يدها إلي شعره سقط علي الأرض، فتلقفته قبل أن يلمس جسده التراب، و قالت :

_ أنا الآن مدينه لك، أنقذت شرفي .

_ أنا ؟ ! أنت ؟ !

_ نعم .. لم يكن الثعبان الأسود ثعباناً .. إنه ابن ملك الجن الأسود المنافس لنا في المملكة المجاورة، و أنا بنت ملك الجن الأبيض، و قد أراد أن يغتصبني ليذل أهلي و شعبي و مملكتي .

_ لا حول و لا قوة إلا بالله .

_ إنهم جن كافر، و نحن جن مسلمون .. و لن أتركك حتى أرد لك الجميل .. أغمض عينيك، ولا تفتحهما حتى أدعوك . وأغمض الرجل عينيه، و بعد دقائق فتحهما، فإذا به بين حدائق لا أول لها ولا آخر، و لا الشمس تصل إلي الأرض، و لا البلابل تتوقف عن الشدو، و لا الموسيقي تخفت أو تعلو .. و الأرض هناك من عنبر و مرجان و ذهب و لؤلؤ و ياقوت ..

اصطحبته إلي مبنى يبرق في الفضاء، يضيء بلا مصابيح، لا تبدو له أبواب و حينما اقتربا فتحت ثغرة فارهة في الحائط البللوري .. ووجد نفسه أمام ملك مهول، حوله وزراؤه و مستشاروه الأفاضل، و قد تدلت شعورهم جميعاً .. و بدت عيونهم مستطيلة أكثر من الآدميين .. روت لهم الفتاة ما حدث .. فرد الملك أبوها بأنها ملك له زوجة للأبد، ثم قدم له جنيها واحداً من الذهب .. و قال : هذا الجنيه لا يصرف أبداً ولا ينتهي ..كلما اشتريت شيئاً قدمه لمن اشتريت، سيجد فيه كل حقوقه، ثم تمد يدك في جيبك بعدها ستجده دائماً .. هكذا تستطيع أن تشتري كل شيء في الدنيا، نظير إنقاذك لشرف ابنتنا !!

"البومة" تسمية عمي صالح لعمي عبد التواب أمين حزين (١) و حينما يرد اسمه أو اسم أخيه عبد السلام أو الفرع كله (أمين حزين) في جلسات المساء علي المصطبة، يصحبه الامتعاض ومصمصة الشفاه.. و إذا جلس بعض رجال العائلة يحصون أفراد العائلة من الرجال طبعاً فالمرأة لا حصر و لا إحصاء لها!! يحددون عدد كل فرع من أبناء حزين، و لا يخطئون لهم عداً، علي الرغم من أنهم بالآلاف، و حينما يصل الحصر إلي فرع أمين هذا، منهم من يضيف الرقم و منهم من يغفله ..

إحصاء عدد رجال العائلة والعيِّل رجل أيضاً يعني مدي قدرة العائلة علي إحكام سيطرتها العتيقة علي القرية والقرى المجاورة: تلات، النصارية، أبو جنشو، طبهار، الحريشى.. ومدي استمرار النفوذ وتضخمه أو تراجعه في الفيوم بصفة عامة.. ولا يتسنى هذا إلا بقدرة الرجال علي حمل السلاح وقت الشدة، والتصدي للعائلات الناشئة هذا الزمان ممن كانوا خُولاً أو عبيداً أو ساسة خيول لدي حزين أغا وأبنائه، ثم "شموا نفسهم" مع ثورة يوليو.. وقد استقل ساسة الخيول بأنفسهم في عائلة تحمل اسم السايس، و الخولة كذلك، بل إن العبيد تجمعوا في عزبة حرة مستقلة تسمي "عزبة العبد" هؤلاء "الأوشاب" طبقاً لمسميات أبي وعمي العمدة علي الصاوي لا تردهم أمجادنا القديمة، بل لابد من القوة المسلحة حتى لا يتجاوزوا أحجامهم!! وقد حاولت إحدى العائلات مرة قبيل الثورة أن تناطح عائلة حزين، بتشجيع من حكمدار الفيوم حينذاك.. لقد قدم الرجل إلي العجميين زائراً متفقداً و مزهواً بذاته، بصفته حاكماً للفيوم في ذاك الحين.. و كعادته دائماً كلما هل علي قرية خرج أهلها، يتقدمهم عمدتها، مرحبين وناحرين الذبائح.. وحينما دخل حدود العجميين لم ير ناساً ولا عمدة في انتظاره.. تعجب: ألم يشموا خبراً؟! ألم يخطرهم مأمور مركز أبشواي؟! ألم تسبقه أخبار قدومه من القرى المجاورة؟!

تجول الحكمدار بشوارع القرية، حتى و صل إلي دار العمودية أو ما نسميه الديوان أو البوابة فرحب به الصاوي بك طلبه حزين عمدة القرية.. إنه ترحيب اعتيادي، كل من يدخل هذه الدار يحظى به و بأكثر منه.. إذن هذا الحكمدار شخص عادي في نظر عمدة العجميين هذا!! لابد من ردعه ووقفه وتوبيخه.

تناثرت المفردات البذيئة من فم الحكمدار، وانتظرت أذناه اعتذاراً وعيناه انحناء لقامة الصاوي بك.. فكان رده تقريعاً بتقريع، و بذاءة بأبذأ منها.. وذهل الحكمدار وأمر بخلع العمدة من العمودية، وفوراً تم نقل "السلاحليك" من داره إلي دار إحدى العائلات الناشئة هذه ..

حدث هذا نهاراً، وعاد الحكمدار إلي مكتبه، وفي الليل تحولت جميع الحقول: ما يروي منها، وما يحصد، وما يحرس إلي نار موقدة بالحرائق وطلق النيران، و قتل العشرات من الفلاحين و العابرين و الخارجين من بيوتهم في جميع القرى المجاورة للعجميين .. ! مع حظر التجوال الذي فرضه العمدة و عائلته علي الجميع بدون إعلان، تحدياً لسلطة الحكمدار المتغطرس .

مرت ساعات الليل كخروج الروح من الجسد المتمسك بالحياة، و لم تنقطع تليفونات مكتب الحكمدار عن الأخبار بوقوع قتيل هنا و جريح هناك في كل ناحية و لم تكد الشمس تغادر مخبأها حتى كان موكب الحكمدار طارقاً دار العمودية معتذراً للصاوي ولابنه علي، وراح يشارك بنفسه في حمل بنادق السلاحليك لإعادتها إلي موقعها الموروث منذ أن أصبح لهذه القرية عمدة ..

و انكمشت العائلة التي أرادت أن تتنفس الصعداء، فأصيبت بالاختناق !!

لكن هذه الواقعة طوتها الأيام، و الثورة ــ ثورة يوليو الآن تفرد جناحيها في كل الآفاق، و تضع كرسياً للفقير و المعدم في المدرسة و الحافلة و الحقل بجوار الباشا و البك القديم .. حقاً إن الثورة لم تستول علي شيء من أملاك حزين التي تفتتت أو ضاعت، و لم يعد أكبر مالك من أحفاده يضم إليه أكثر من خمسين فداناً .. لكن هذه الحالة الاقتصادية الوسطي ينبغي ألا تجريء الأثرياء الجدد علي أبناء الثراء والمجد والنفوذ

القديم .. و ربما أغرى الفقر محدثي النعمة من الأفراد أو العائلات بعد الثورة للاستخفاف ببعض أفراد العائلة، أو لإيقاع أذي ما بهم، أو حتى بتحريك بعض القوانين ضدهم .. فهل تقف العائلة عاجزة حتى تفترسها الفئران ؟ !

الحادثة هذه وقعت منذ عقود قليلة : إذ أوحى أحد الرجال من قرية مجاورة، إلي رجال الأمن بأن أحد أفراد عائلة حزين يتاجر في المخدرات .. و ألقي القبض عليه فعلاً و حكم عليه بالسجن .. فرأت العائلة في الواقعة حدثاً مروعاً، وواقعة فاصلة في تاريخها، و جرأة سوف تجر وراءها استخفافاً و سخرية، و ربما تحقيراً و تعدياً علي آل حزين .. كان التصرف السريع أن ذهب عدد قليل من الرجال إلي منزل الرجل في القرية المجاورة نهاراً، وأخرجوه من داره أمام أهله، و أطلقوا عليه الرصاص، و راحوا يعدون عليه أنفاسه حتى آخر زفرة و شهقة !! و لم يجرؤ بعدها أهله و ذووه ولا أحد من سكان القرية علي البوح بما حدث، ولا التلميح بمن شاف !!

هل يستطيع أبناء أمين حزين و أحفاده القيام بهذا العبء لحماية كرامة العائلة و رفع اسمها عالياً ؟!

الإجابة في جلسات المصطبة كانت دائماً: لا.. إنهم متعلمون!!! وأحياناً كنت أسمع: إنهم أفندية، أو خوجات.. و لم يغب مسمي بومة عن عبد التواب حزين كلما ورد علي لسان صالح حزين، حتى إنني ظننت كل من يتعلم سيضحي بومه، أو أن هذا البوم الذي نراه فنرميه بالطوب قد نال شهادات عالية جعلته منفراً إلي حد أن نقذفه بالطوب!! ونمت الفكرة في رأسي فربطت بين الخراب و الخرابات و التعليم فما دام البوم ينعق فوق البيوت فيحيلها خراباً، و ما دام البوم مرتبطاً بالتعليم و العلم، فالخطر كل الخطر أن ينال أحد علماً أو يلتحق بمدرسة !! لكن محمداً أخي في المدرسة الآن فعلاً، و أنا قد تبعته إليها .. والمدرسة نفسها لم تكن خراباً، ولم أر بوماً فيها، بل رأيت الأستاذ مصطفي عبد الفتاح، والأستاذة فوزية عباس، والأستاذة سكينة المريضة دائماً والغائبة كثيراً عن تلاميذها!!

الإجابة وردت إليَّ من هذه الجلسات متقطعةً. ومن أمي أحياناً، فقد كانوا يدعون لي ولأخي ولكل تلميذ التحق بالمدرسة بأن يصبح ضابطاً أو وكيل نيابة.. ولم ترد أية وظيفة أخري علي فمهم أبداً.. إذا يمكن أن يكون التعليم جميلاً إذا خرَّج ضباطاً ووكلاء نيابة فقط!! لا مانع أن يكون هذا أو ذاك ما دمت أحب المدرسة.

مرة كنا في طابور الصباح، و قد حمل الناظر والمدرسون فوق ملابسهم مقطفاً من "النشا" السائل!! لا حركة، لا لفتة، لا صوت.. وفجأة رأيت بينهم اهتزازات ووشيشا، وإذا بالناظر الوقور جداً الثابت كنخلة، يهرول و خلفه طاقم المدرسات والمدرسين.. وبدأ العيال الأكبر منا سناً في الطابور يرددون: الوزير.. المحافظ.. المفتش.. المأمور.. وبعد دقيقة عاد الركب هذا جميعاً يتقدمه (البومة) أقصد عبد التواب حزين، و قد وقف الناظر والجميع يرتعشون أمام البومة (٢) !!

هـــــــوامش

١- الغالب أن ندعوه " عماً " كل من هو في مقام الأب سناً أو انتساباً من عائلة حزين و ليس ضرورياً أن يكون شقيقاً للأب .. أما من هم خارج العائلة فلا نسميهم هكذا بل نقول أبو فلان أو أبو فلانة باستثناء المنتمين لعائلة (جاد) الذين تربطهم قرابة بحزين .. و يقال أن (جاد) اخو حزين .. و لذا تسمي العائلتان معاً: الجواحدية، أو عائلة الجاحد!!

٢- كان عبد التواب حزين موجهاً عاماً للتعليم بالفيوم .. و إن ظل في نظر العائلة مجرد خوجة، لا يستطيع حمل السلاح، ولا المشاركة في الحملات الانتخابية للبرلمان و لمجلس الشعب فيما بعد.

في تفتيشه المدرسي كان "البومة" في لباس الأفندية، محاطاً بالمدرسين الذين ترعبنا عصيهم.. وهو الآن جالس أمامي في غيطه علي الحشائش. حقاً، إنه لا يحمل (الطورية)(١) عازقاً بها، ولا "الشرشرة"(٢) حاشاً بها البرسيم.. لكن يرتدي جلباباً كالفلاحين.. أفلاح هو أم أفندي أم بومة؟! فليكن ما يكون.. كل ما أعرفه عنه غير حديث المصطبة انه لا يتحدث، لا يبتسم، لا يزور ولا يزار، لا يشهد رقص الغوازي في الأفراح، و نادراً ما يعزي في المآتم ..

الآن أسمع نداءً، أتلفت حولي .. لا أحد سوي البومة الذي لا ينطق، و حماري الذي أركبه .. أيتحدث الحمار ؟ ! مددت عنقي لأنظر إلي فمه _ الحمار _ و اسأله :

_ أتنادي ؟ !

_ هيئ لي انه قال :

_ نعم !!

_ أتتحدث الحمير ؟!

رد علي بحدة :

_ أنت و أبوك الحمير .. لا أنا !!

انهلت علي حماري العجوز بعصاتي و كعب رجلي .. ثم توقفت مرعوباً .

_ ألا يمكن أن يكون هذا الحمار مسخوطاً، و كان في الأصل رجلاً تبول في اللبن الحليب، أو امرأة توضأت به، أو ساحرة دخلت " الحوش "(٣) و بيدها المصحف ؟!

لا أظن هذا و لا ذاك . فها هو ذا يستغل انصرافي عن ركله و يغرس فمه في الحشائش بجوار " المنصل " (٤) و يلتهم منقطعاً عن المشي .

_ يا واد يا بن عمر ..

هذا نداء أكيد موجه لي .. و لا أظنه صادراً عن الحمار المنهك في قضم الحشائش، و هل يعرف الحمار اسم أبي ؟ !

لا احتمال لدّي سوي النظر إلي البومة .. و بحلقت في عمي عبد التواب، فسمعت كلاماً مثل كلامنا تماماً نحن البشر :

_ تعال يا ابن الكلب !!

جميل جداً، إنه هو .. و قد تعلم الشتم و القباحة مثلنا .. فكيف يكون بومة ؟ ! أأنزل إليه لأعرف مطلبه ؟ ! و ما يدريني أن يكون ذا مخالب مخفية تحت كم جلبابه المتسع، أو يكون ذا أنياب بومية تنغرس في جلدي ؟! لو جريت منه فالحمار لن يسعفني، و لو تركت الحمار فقد أنال علقة من أبي .. انه لم يضربني أبداً، و لكنه قد يفعلها لأني فرطت في مالي .. ثم أنني " رجل " شجاع .. لِمَ أخشاه و هو الذي لا يحمل بندقية و لا يجيد إطلاق الرصاص ؟ !

_ نعم يا عم بو ... يا عم عبد التواب .

_ أنت يا ولد في المدرسة أم انك مثل أبيك و سائر أهلك الجهلاء ؟ !

_ جهلاء !! أنا .. أنا في المدرسة الابتدائية .. و قد رأيتك هناك .. و الناظر خائف منك .. هل يخشى أن تعضه ؟ !

_ أعضه يا بن الكلب !! يا غبي الناظر يخشى درجتي الوظيفية .. و درجتي الوظيفية هذه تعود لعلمي و اجتهادي .

_ و هل يخشى أحد العلم ؟ !

_ لا .. لكن الله سبحانه يقول " و رفعنا بعضكم فوق بعض درجات " و كذلك " يخشى الله من عباده العلماء " .. صدق الله العظيم

_ أنت تعلم أشياء كثيرة يا عم بو ... عبد التواب ؟ !

أعلم أشياء كثيرة .. و أجهل أكثر ..

إذن لماذا لا تستطيع إطلاق النار و حمل السلاح ؟ !

هذه الأشياء يا بني سلوك الجهلاء الذين أحدثك عنهم .. نحن نحمل القلم و الورق فقط .. و هما القوة الحقيقية للناس .. أما إذا حملت البندقية و المسدس و " الفرد" (٥) فهناك من يحمل الرشاش و المدفع، و من يقود الدبابة و الطائرة، فهل أنت بندقيتك أقوي من هؤلاء ؟ !

و لِمَ لا نحملها مثلهم ؟ !

بالعلم نستطيع _ كدولة _ أن نصنع هذه الأسلحة و أن نحملها، لندافع عن أنفسنا بها، و نسترد أرضنا المنهوبة .

ليس لنا ارض منهوبة .. و من ينهب أرضنا سأقطع رقبته !!

لدينا أرض منهوبة فعلاً، في فلسطين، و في سيناء .

و من نهبها ؟ !

اليهود، و معهم أوربا و أمريكا .

_ نستطيع أن نقتلهم جميعاً .

_ بالعلم فقط نستطيع أن نتغلب عليهم .

_ فلنشك إلي جمال عبد الناصر .. و هو أطول رجل في العالم و أقوي رجل .. و سوف يقتل هؤلاء جميعاُ .

_ لقد حاول يا بني .. حتى توفي قبل أن ينجح في استرداد أرضنا هذه .. ثم .. ثم إنك صغير علي هذه الهموم .. دعك الآن في القراريط القليلة التي يملكها أبوك و كذلك في مدرستك .

_ قراريط قليلة ؟! إنها أكثر مما تملك .

_ لا بابني .. أنا و عبد السلام أخي نملك أكثر منكم، علي الرغم من أن أبانا " أمين حزين " قد ظلم من إخوته الكبار : طلبة و محمود و صالح .. و لم يتركوا له من ميراث جدنا " حزين أغا " سوي عدة أفدنة .

_ و كيف ظلموه هو بالذات ؟ !

_ هو و غيره من إخوته الأصغر سناً .. فبعد وفاة الأغا ضم الأخوة الكبار إخوتهم الصغار إليهم لتربيتهم و ضموا أملاكهم _ كقُصَّر _ إليهم كذلك،و لكنهم بعد أن شبوا لم يحصلوا إلا علي أقل القليل منها .. و علي الرغم من ذلك بقي لنا أقل القليل هذا، و بارك الله فيه، بينما ذهبت آلاف الأفدنة الأخرى التي استولي عليها أبناء حزين الكبار بالحق و بالباطل .

_ إلي أين ذهبت ؟ !

_ و جوه كثيرة ضاعت فيها هذه الأراضي ، و لم يبق منها إلا الفتات .. فمثلاً جدك محمود حزين كان رجلاً " دِنِي " يعشق النساء، و كان كذلك " بُطَنِي " فكلما أعجبته امرأة دفع إليها بعشرة أفدنة أو أكثر و تزوجها .. ثم ينفر منها سريعاً، فيطلقها بأرضها .. و كان إذا زاره أحد فلاحيه ببلاص من المش و حلة زبدة ــ وهي في الأساس من

بهائمه التي يربيها هؤلاء الفلاحون _ سعد به و منحه فداناً .. و كان مكر الفلاحين هؤلاء يسوقهم دائماً إلي زيارته محملين بزبده و مشه ولبنه !! و عائدين بأفدنته !!

_ إذاً ضاعت أرض محمود كلها علي هؤلاء الفلاحين و النسوان !!

_ ليست كلها .. لقد كانت بالآلاف .. و خذ من التل يختل .. فالتل لديه اختل لكن لم ينفد، بقي منها الكثير، و بقي كذلك بعض الأفدنة لدى طلبه حزين، الذي ابتلي بداء " الكرم " إلي حد السفه .. حتى انفق أكثر ثروته علي الطارقين لبابه ليل نهار، و من كانوا يأتونه مادحين من الشعراء، و ظل ينفق و يبدد حتى زاره يوماً شاعر مداح، فلم يجد ما يقدمه له سوي عدة أجولة من الذرة، و كان يجري تحميصها حتى تطحن و يأكل منها أهل " البوابة " أو "الديوان" من أسرة طلبه ومن خدمه و عبيده .. و حينما قدم الشاعر أمر طلبة بسحب هذه الذرة من الأفران و تقديمها للضيف، و بقي الدار خالياً حتى من الخبز !!..

_ و ماتوا هم من الجوع !!

_ لا .. فجأة دخل إليهم حمل جمل من الذرة و القمح أرسله حماه " عبد الله بيه " .. و رأي الصاوي طلبه انفلات يد أبيه، و ما ساقه إليهم من فقر، فمنع بيع عشرين فداناً، و هدد من يأتي لشرائها بالقتل .

_ لم يرث الصاوي من طلبه بعد وفاته غير هذه الأفدنة العشرين ؟ !

_ نعم .. لكن استطاع أن يضيف إليها مئات الأفدنة مرة أخري بطرائق مشروعه أحياناً و ظالمة أحياناً أخري .. و لم يكن هذا هو الطامة الكبرى ..

_ الطامة الكبرى ؟ !!

_ نعم .. الطامة الكبرى التي أطاحت بكل شيء هي " هوجة عرابي " !!

هـــــــوامش

(١) الطورية : آلة عزق الأرض، و تسمي في بلاد الوجه البحري و غيرها " فأساً " .

(٢) الشرشرة : هي المنجل، يحش به البرسيم و عيدان الذرة .

(٣) الحوش : يُقصَد به " الحمام " أو دورة المياه .. و يسمونه في حواري القاهرة _ كما عرفت من درب الحصر بالقلعة : " الكنيف "و الكنيف هذا فصيح .

(٤) المنصل : الترعة .. و لا اعرف أية علاقة لغوية بينه و بين " المنسر " أي العصابة من اللصوص .

(٥) الفرد : مسدس ذو طلقة واحدة، يصنع غالباً يدوياً في ورش خاصة و بدون ترخيص .

عمي عبد التواب لم يعد بومه.. إنه يتحدث، وإن ظل مقطَّب الجبين.. وحديثه يخلو من حكايا الجن و العفاريت .. أهو يخشاها؟! لا أدري، وإن كانت رعدة ظاهرة تصيب أمي أو كل من يذكر الجان بالذات.. فيقولون قبل الاستطراد: افتكرنا الزبدة واللبن الحليب.. ثم يفيضون عليّ بشتى صنوف الجن الأبيض والأسود والأحمر.

وإذا كان عمي عبد التواب لا يستهويه حديث الجان .. فإن السحر و السحرة يشوقني كثيراً .. لم يتعرض لهما و أنا أجلس معه علي الطوار (١) في غيطه !! إنني لا أتذكر حكاية كاملة لهؤلاء السحرة باستثناء حكاية الملك فارس و الملك ماضي، وسوف أقوم أنا حين أراه مقام العلم وألقي عليه حديث الملكين، لعله يضيف هو أحاديث مماثلة .. و إن لم يضف فيكفيني أني لن أكون جاهلاً في نظره ..

سأقول له :

_ هل زرت كيمان فارس بالفيوم ؟ !

سيرد عليّ :

_ لا .. و لِمَ أزورها و هي مجرد كيمان و خرابات ؟ ! فأجر رجله قائلاً :

_ ياه يا عمي عبد التواب .. إن فيها العجب العجاب .. لقد حكي لي أبي مرة انه ذهب بصحبة مجموعة من الفلاحين و معهم حميرهم لجلب " السباخ " من كيمان فارس، فظلوا يملأون غُبْط (٢) الحمير و مزابلها (٣) حتى ظهرت لهم أطراف آنية معدنية، تتبعوها بالحفر و إزاحة الركام، فإذا بها طست هائل الاتساع، يقع علي ما لا يقل عن نصف فدان، و حوله ست نساء منكفئات عليه .. سيدهش عمي عبد التواب .. و يقول :

_ لا حول ولا قوة إلا بالله .. وما الذي جمد هؤلاء النسوان علي هذه الحالة .. و كيف بقيت أجسادهن بلا تحلل علي مدي مئات السنين ؟!

_ و ربما آلاف ؟ !

سأتمهل قبل أن أدلي بمعارفي الواسعة، ثم أخلع شجرة سيسبانة صغيرة، و أحركها في يدي و أنا أتحدث :

_ كانت منطقة كيمان فارس هذه مدينة مزدهرة، يحكمها الملك فارس، و علي بعد عشرات الكيلو مترات _ في الفيوم كذلك _ تقع مدينة الملك ماضي،في القرية المسماة الآن " أبو جندير " وكلا الملكين : فارس و ماضي يعيشان صراعاً دائماً و ملتهباً .. لكن لم يكن تقليدياً متخلفاً _ كما يحدث الآن _ بالطائرات و الدبابات و البنادق .. إنه صراع السحر والسحرة .. فكل ملك لديه كهنته من كبار الساحرين و عتاتهم .. فإذا ما أصبح سكان مدينة ماضي علي المياه لديهم، وقد تحولت دماً بفعل سحرة مدينة فارس، يمسى سكان فارس . و قد صار جريد النخيل ثعابين تهبط من أعلاها زحفاً لتطارد الناس في الشوارع و الغيطان .. و يرد سحرة المدينة المنافسة بتحويل الصخور المجاورة إلي حيتان تهجم علي الماعز و البقر و الحمير لتلتهمها، ثم تعود صخوراً كحالتها الأولي .. و هكذا يحمل كل صباح و كل مساء أعجوبة جديدة في السحر و الرعب لكلتا المدينتين .. و لا يجد الملكان إزاءها إلا عقد معاهدات الصلح و عدم الاعتداء ..

لم يكن هؤلاء الرجال سحرة مخرفين دائماً، بل أحياناً كانوا علماء نابغين .. و قد أراد الملك فارس أن يستعرض قدراته العلمية للملك ماضي، فانشأ أنبوباً يمتد من مدينته إلي المدينة الأخرى، و صب فيه قدحاً واحداً من الزيت، فإذا بالزيت يسير كل هذه الكيلو مترات ليصل قدحاً مكتملاً كما صب تماماً.. و كان رد الملك ماضي أن جلب قالباً كبيراً من الجليد، ثم أضاف إليه مواد خاصة، ووضعه تحت الشمس اللافحة من الصباح حتى المساء، و لم يذب الجليد .. و بعد مغيب الشمس رمي عليه سائلاً، فعاد إلي حالته الأولى رقراقاً .. وهكذا _ يا عمي عبد التواب _ ظلت الصراعات العلمية و السحرية مشتعلة بين الطرفين، حتى كانت ساعة الفصل، " فسخطت " كل مدينة منافستها، و تجمد البشر و الشجر و الحيوان بدون روح ولا حركة، كل في موضعه ، زمناً طويلاً، حتى انهارت المباني و المنازل و كل المرافق علي هؤلاء البشر " المسخوطين " و قد رأي منهم أبي _ و من معه _ هؤلاء النسوة الستة المنحنيات علي الطست الأعظم .

و عمي عبد التواب هذا رجل نكد، لن يسمح لي بالتفوق عليه في الحديث .. و سوف يقول لي :

_ يا واد يا بن عمر .. هذه تخاريف، و سحر في سحر .. سأرد عليه ..

_ إذن دعك من كلام السحر .. سأحدثك في الدين .. ولا أظنك، و أنت تصلي _ علي غير عادة معظم أبناء العائلة _ ستكذب كلام الدين ..

و سوف ألضم حلقات كلامي بعضه ببعض فوراً، سلسلة تخنقه فلا يستطيع الفكاك منها أو تكذيبها .. سأقول له ..

_ هل تعرف سبب تسمية " البدرشين " بهذا الاسم؟! بالتأكيد لا تعرف!! إنها مرتبطة بسيدنا يوسف _ عليه السلام _ و أنت تعلم ما كان بينه و بين امرأة العزيز، حينما كانت آية في الجمال الكوني، و حاولت إغراءه، فأبي، و عصمه الله من أذاها، ونجاه من سجنه .. و قد مرت الأيام : سنة ورا سنة ورا سنة ورا سنة .... حتى بلغت تسعين عاماً، لم يرها و لم تره .. و صدفة نظر يوسف إلي امرأة عجوز شمطاء أكل عليها الدهر و شرب و بال و بصق !! لكنه _ بحكم النبوة _ أدرك أنها امرأة العزيز .. و بحكم النبوة كذلك لم يحمل لها ضغينة، بل عطف عليها و قال :

_ ما للبدر شين ؟ ! أي ما للبدر وقد تحول إلي القبح و المنظر المشين ؟ ! ثم قال لها : سأعيدك بإذن الله فتاة عذراء لم يمسسها بشر.. و قد فعل، ثم تزوجها .. و عاشا في تبات و نبات، ولم ينجبا لا صبياناً ولا بنات .. و إياك أن تسخر مني، و تقول إن يوسف عليه السلام لم يكن يتحدث اللغة العربية، حتى يطلق مفردتي : البدر، شين .. فهذه أمور مرتبطة بلغة الجنة، و يوسف من أهل الجنة فهل تشك في معرفته لغتهم ؟ ! فجأة زغدني أخي محمد و قال :

_ الحق الجاموسة فكت الحبل، واتجهت إلي غيط عمك عبد التواب ترعي برسيمه.. لو جاء الآن سيلعننا، و يجري وراءنا بسلاميته.. وهرولت خلف الجاموسة حتى أدركتها، وقد مدت بوزها فعلاً علي برسيم عمي عبد التواب.. لم أضربها أو اسحبها فوراً، بل رحت أتلفت حولي حتى لا يكبس علينا الرجل، وأتلقي شتائمه.. ظلت الجاموسة ترعي. إنها من خلق الله ترعي في ارض الله، حتى لمحت عمي عبد التواب قادماً علي صهوة حماره من بعد.. فسحبت الجاموسة، ودققت لها الوتد في غيطنا.. وتأهبت لاستقباله، لأشبعه حديثاً عن السحر والسحرة وعن أنبياء الله _ و خاصة يوسف.. و لكنه بمجرد أن جلس أمامي و جدتني أبادره :

لم تقل لي يا عمي عبد التواب .. ماذا حدث في هوجة عرابي ؟!

هـــــــوامش

_ (١) الطوار : جرف مرتفع بجوار الترعة، يمتد بامتدادها .. و يجلس عليه الناس في حقولهم، حتى لا يجلسوا علي الأرض المنزرعة فتفسد الزراعات .

_(٢) غبيط الحمار : نسيج كبير من شعر الحمير غالباً يوضع فوق ظهره، ليملأ بالحشائش أو " الركش " أي الحصوات الجافة، و له جنبان كل منهما في جهة من جهتي الحمار .

_(٣) المزبلة : غبيط، لكن من الليف المفتول، لا من الشعر .. و حينما يملأ الغبيط أو المزبلة يسير صاحب الحمار من خلفه، ولا يركبه لثقل الحمل عليه .. لكن بعض عديمي الرحمة يركبون فوق كل هذا العبء .. و قد قيل لنا أن الإنجليز حينما كانوا يحتلون مصر و جدوا رجلاً علي هذا الوضع فهالهم المنظر غير الرحيم، و انزلوه، و ضربوه، و غرموه، ثم أمروه بحمل الحمار، و ظل يحاول و يعجز، حتى رفعه عدة جنود منهم ووضعوه فوق الرجل، فمات !!

_ (٤) تبات و نبات هذه، لا أعرف لها أصلاً، و لا معني، و قد توقفت عن ترديدها بمجرد نمو الإدراك لديَّ، أي في السبعين من العمر !!!

باستثناء أبي، كانت القاعدة الحتمية لمن يسلم علي العمدة " علي الصاوي طلبة حزين " أن تنحني شفتاه لثماً ليد العمدة، و هو ـــ عادة – لم أره ينزعها من يد أحد، كما يتظاهر بعض شيوخ الطرق الصوفية الذين يقيمون " الذكور " – جمع الذِكر _ في الموالد و المناسبات الدينية و الأفراح لدي أهل العجميين و ما يحيطها من القرى .

لم يكن لشيوخ الطرق هذه أي ارتباط عائلي أو جغرافي بالعجميين، هم غالباً من " أبو جندير " أو كحك، أو النزلة .. و غالباً ما كنت أتساءل : هل نزعت البركة من العجميين و أهلها حتى لا نري منهم أي " شيخ " من مقيمي الذكر الذين يحظون بتقبيل يد الرجال لأيديهم ؟ !

الرجال يقبلون أيدي هؤلاء الشيوخ _ القادمين للقرية لإقامة الذكر _ و حول كل منهم فريق عمل من الأتباع و المريدين، لا يقلون عن عشرة، و قد يربون تبعاً لرصيد الشيخ لدي الناس، ومدي " سره الباتع " و كراماته التي سجلت له، و عمق جذوره في المشيخه .. ووجود الأتباع ضرورة حتمية لتسخين حلقة الذكر، و تأكيد مظاهر الهيبة و التبجيل علي الشيخ .. كل واحد من هؤلاء الأتباع يمسك بيده دفاً أو " رقاً " أو ما يشبهه .. أما الشيخ فغالباً ما يمسك " سلامية " و مفتاحاً أو قطعة حديد، يوقع بها عليها .. و يبدأ الشيخ الإنشاد، و يتلقى ترديد الأتباع مع من اصطف معهم في حلقة كبيرة أو صفين متوازيين من أهل القرية، ثم تبدأ اهتزازات الأجساد في تؤدة، و تتواتر، و تتسارع، مع الإنشاد و المديح و " الله حي " ممتدة ساعات من الليل في الجرن أو الوسعاية أو ساحة مفتوحة بين البيوت ..ليس الأتباع و حدهم، و لا مشاركوهم، و لا طرقات الدفوق، الدافع الأوحد لتسخين الذكر، حتى يسقط أحدهم علي الأرض، و يصرخ من يصرخ، و يُزبد فم من يزبد، بل هنالك عامل خفيّ معلن كنت ألمحه و أنا أرصد حالة ذكر الله هذه : إنها النسوة الجالسات علي المصاطب قبالة الذكر، و الطَّالات من الشبابيك، و الجالسات أمام الأبواب .. عيون النساء حلقة محكمة حول الشيخ و رجاله، شاخصات صامتات و إن كانت ناطقات بما لا أدرك أنا .. أما الشيخ نفسه فهو في هيامه بذكر الذات العلية تهيم عيناه في كل اتجاه مرة و مرات حتى تقع علي إحدى الجالسات، فيتحول انجذابه من السماء إلي الأرض : إلي هاتين العينين البراقتين الطالتين عليه .. و يثبت مؤشر حركة الشيخ في اتجاه واحد لامرأة واحدة ..

فإذا ما برحت مكانها للنوم أو تعباً _ فهن لا يدركن من الشيخ سوي بركته ووصوله فقط _ تحرك مؤشره في اتجاه آخر بحثاً عن عينين أخريين !! و هذا هو شأن الشيخ الكبير، و لا ضير إذن أن يكون شأن الأتباع و الشيوخ الصغار !! غياب مثل هذه البركات عن قريتنا لم يكن الوحيد، فهنا لا أجد تطبيقاً علي الأرض لمسميات " الباشا" و " البك " و لو كان مصحوباً بلفظة " السابق " طبقاً لما درسناه في كتاب التاريخ المدرسي .. و لا أري إقطاعياً و إن رأيت احتراماً و انحناء للعمدة _ رمز عائلة حزين _ و كبير القرية و القرى المجاورة .. و لم يصفه أحد بباشا أو بك .. و يسري هذا الاحترام _ و ربما الخوف _ للعائلة كلها حتى يدركني أنا في المدرسة الابتدائية : أستطيع أن أضرب أي زميل لي، و أن أخطف ما بيده من حلوي أو طعام _ و لم يكن يتجاوز الفول و الطعمية و المربي _ و لا رادَّ لي، بل لا مقاومة من هؤلاء الصبية أمثالي . كانت لي قوة جسدية خارقة، لكني قد انتصر بها علي زميل أو زميلين .. أما أن أسوق مجموعة مثلاً أمامي فهذا أمر مستغرب .. لماذا إذن ؟ ! اتضحت ملامح بعض الإجابة حينما كنت أجلس متفرجاً علي مباراة لكرة القدم بين زملاء بالمدرسة الإعداديه _ أكبر مني _ ثم تحول اللعب إلي شجار فيما بينهم، و انطلقت قذائف " الطوب " من الطرفين، و أنا مازلت جالساً علي الحياد، حتى أصابتني رمية منها، فصمت الجميع عن التشاجر، و تحولوا كلهم إليَّ طبطبة و تدليلاً و رعباً .. ثم قادوني إلي أمهاتهم اللائي واصلن تدليلي، و الاعتذار لي، ووضع البن فوق الجرح الصغير برأسي .. ثم كانت النصيحة المتكررة منهن جميعاً، أو الرجاء المتردد : لا تخبر أباك أن شيئاً قد حدث، و لا تخبر عمك صالح .. أنت ابننا و كلنا نحبك، و رأيت كيف نال كل العيال علقة ساخنة من أجلك.. أليس كذلك يا حبيبي ؟! أنت لن تقول .. هه !! و لم أقل حتى الآن !! كنت أحس بشيء من المهابة لي بين زملائي بعد هذه الواقعة، و تبين لي أن الناس تخشي أبي و عمي وربما آخرين .. فرأيت أن أوظف هذه الحيثية الخاصة لي في تحسين " ظروفي المعيشية . " فالعيال أولاد " الشاذلي " منهم من هو اكبر مني بعام و من هو أصغر .. لكنهم جميعاً يلبسون " مرايل " و يبدلونها طوال العام، و كذلك ينتعلون أحذية جلدية جديدة دائماً، و ليس لي غير حذاء قماش كان أبي يشتريه لي بثلاثين قرشاً، و يبقي ملتصقاً بقدمي عاماً، أو أعواماً، حسب حالته .. و هم يأكلون الحلوى و أنا

أشاهدها فقط .. لماذا و هم أقربائي و أبوهم " احمد الشاذلي علي الصاوي طلبه حزين " رأسه براسي طبقاً لسلسلة العائلة،فهو الحفيد الخامس لحزين أغا مثلي، و إن كنا نناديه " عم أحمد " لكبر سنه، أي أنني عم هؤلاء العيال و لو كانوا أسن مني .. و من الأوضاع المقلوبة كذلك فقري هذا مقابل ثرائهم .. إذن فلأبحث عن وسيلة للعيش، و لن تكون أبداً بترك المدرسة و احتراف البقالة مثلاً، بل بأن اشتري بعض علب و أكياس " العسلية " بمدخراتي من القروش القليلة، ثم أبيعها للعيال في الفصل، و في المدرسة أثناء الفسحة ..

نمت تجارتي من كيس واحد إلي أربعة أكياس .. فالربح مستمر : قرشان أو ثلاثة في كل كيس، و يتوافر لي مع هذا الربح كمية من السمسم تتساقط من أعواد العسلية، و إن لم تتساقط أسقطُّتها أنا و سفتها، و ليس لأحد من المشترين أن يحتج و إلا صفعته !!

ذاع صيتي في المدرسة الابتدائية كمروج للعسلية بين الأطفال " الأبرياء " !! فنبهني الأستاذ احمد أبو المجد إلي سوء مسلكي، فلم اشغل نفسي به أكثر من مرة .. حتى فوجئت يوماً " بكبسة " من ناظر المدرسة الذي ينتمي لقرية طبهار، و يأتينا كل يوم علي دراجته .. ناداني الناظر و أنا اجلس في " تختتي " (١) و قد رأيت الشرر يقدح من عينيه، و لا أنسي وجهه الكئيب حتى هذه اللحظة، خاصة أن وجهه هذا انتقل إلي متشاعر في السبعين الآن احترف انتخابات اتحاد الكتاب و عاش للاسترزاق منها !!

ناداني الناظر :

_ واد يا حزين .. تعاليَ هنا .. و هات أكياس العسلية بتعتك .

ترددت في الخروج، و حسبتها في رأسي سريعاً إذا لم أخرج إليه بجوار السبورة، دخل هو إليَّ أمام مقعدي .. و أنا متوجس منه .. و إذا خرجت إليه قد يضربني !! و في برهة سحبت " مخلتي " (٢) بما فيها من كتب و كراريس و عسلية، وتحركت بهدوء _ مدروس _ في اتجاهه، ثم فجأة قفزت متجاوزا إياه عابراً باب الفصل المفتوح في الدور الثالث، و مهرولاً علي السلم، و منطلقاً في " حوش " المدرسة .. و هو يجري ورائي و كل من يراه من المدرسين، حتى " حَدَّ " عليَّ مدرس الألعاب و قفز قفزة من حيث لا أراه، فوقعت أسيراً في يديه، ليسلمني للناظر الذي لم يستخدم عصاه

ضدي، بل أطلق يديه بعدة لكمات لي في صدري، كما لو كنت منافساً له في حلبة ملاكمة .. حتى أفلت مرة أخري إلي خارج أسوار مدرسة العجميين الابتدائية !!

ما أذكره حينذاك أن أبي _ ومعه بعض الرجال _ ظلوا يجلسون ليتدبروا التوقيت المناسب لقتل هذا الرجل أثناء عودته من المدرسة إلي قريته .. و استمر التداول و" التكتكة " أياماً، و أنا أتردد علي مدرستي بشكل اعتيادي حتى رأيت الناظر، ما أن رآني في الفصل حتى قبَّل رأسي مؤكداً أنني مثل ابنه، و هو خائف علي مصلحتي بأن أتحول من تلميذ مجتهد، بل انبغ التلاميذ في الفصل إلي بائع حلوي !! ومنذ ذلك الوقت فقدت صلتي بالمشروعات الاقتصادية و التجارية الكبرى !!

حين " وقفة " الصلح هذه مع الناظر تمنيت أن أخبره بأن الأمور ليست علي ما يرام في المدرسة، و أنني لست المخطيء الوحيد .. فالأستاذة سنية دائمة المرض، و تزور المدرسة يوماً و تغيب سائر الأسبوع، و يضم فصلها دائماً إلي الفصول الأخرى، مما يعني الاعتداء علي استقلال الفصل و سيادته !! و الأستاذ مصطفي عبد الفتاح _ أستاذي الحقيقي و الأول _ يضرب العيال بجلدة سميكة جداً علي مؤخراتهم، بعد أن يكِلَ أمر المضروب إلي أربعة تلاميذ، يدفعونه إلي الأمام علي تختة و يمسك كل واحد بذراع و رجل ثم ينهال هو علي المؤخرة بجلدته المطرقعة !! أما من يذهب للحصول علي درس خصوصي لديه في اللغة العربية بخمسة و خمسين قرشاً في الشهر فالعقاب له _ إذا أخطأ _ يخفف لينحط إلي مجرد التوبيخ، أو الضرب علي اليدين فقط !!

أما الأستاذة ليلي فهي شيء آخر و موقف آخر، لا أعرف أهو صحيح جميل عذب أم أنه خاطيء .. و إن كنت أغلِّب فكرة الخطأ علي موقفها هذا .. لأنها لو كانت تمارس عملاً عادياً ما تراجعت أمام الأستاذ عطية و هو واقف في الفصل معها، ثم يتحرك بحذر و بطء في اتجاهها حتى يكاد يلتصق صدره بنهديها الكبيرين، فتتراجع هي نصف خطوة، و يتقدم نصف خطوة، و تتراجع ربع خطوة، و يتقدم ربع خطوة، و تتراجع، و يتقدم، و تتراجع و يتقدم، مع الهمس و لمس اليدين، حتى يدخلا معاً خلف الباب و يختفيا عن أعيننا لحظات !! و لو كانت الأستاذة ليلي مدرسة الموسيقي البضة عارية الساقين قد كشفت لنا ما يحدث بينها و بين الأستاذ عطية وراء الباب، ما كنت

رأيت خطأ و لا غضاضة في الأمر !! ألا تعرف يا حضرة الناظر مثل هذه التصرفات التي نحرم نحن منها ؟ !

لقد تعلمت الحذر بعد واقعة العسلية في تعاملاتي مع العيال و البنات في المدرسة .. فالزملاء لم أعد اضربهم أثناء الفسحة، و لم أفرض أي نوع من السطوة عليهم، و منعت حتى " فرقة الأسود " (٣) التي كونتها من ممارسة أي قهر علي زملائهم داخل المدرسة .. و نقلنا نشاطنا إلي خارجها .. و بالنسبة للبنات امتنعت علي الالتصاق بأجسادهن لحظة أن ينطلق جرس المدرسة و يتزاحم التلاميذ خروجاً من باب الفصل .. و غيرت نمط تعاملي معهن، من الالتصاق في الزحام في باب الفصل، إلي تعمد وقوعي فوقهن، ثم احتضانهن من الخلف _ غالباً _ خارج سور المدرسة .. و قد أتفق مع بعض أعضاء فرقة الأسود، فيدفعني فجأة علي البت سلامة فأوشك علي الوقوع إذا لم احتضنها، و لا مفر حينذاك من الاحتضان _ و إلا وقعت _ و ربما أسفر الاحتضان عن قبلة أو فعل قبيح يصدر عن إحدي أصابعي !!

هـــــــوامش

١- التختة : هي المسند الخشبي الكبير الذي يجلس التلاميذ أمامه علي كراسيهم .. و يسمونه الآن (ديسك) .

٢- المخلة : حقيبة مدرسية كنا نخيطها من القماش، لا من الجلد، و لها يدان نعلقها منهما .. أما الحقائب الجلدية فكانت مظهراً نادراً و دليلاً علي الثراء الفاحش لدي عدد ضئيل جداً من التلاميذ و منهم الواد "رجب العجل" أي من عائلة العجل!! أرأيت عجلاً صغيراً يحمل حقيبة؟!

٣- فرقة الأسود : مجموعة من التلاميذ الأشداء المشاغبين، شكَّلتها، كأتباع لي، وكنت أدربهم علي بعض الرياضات كالقفز فوق الأشجار، و الملاكمة و الجري، وهم يأتمرون بأمري، و ينشطون أثناء الفسحة المدرسية، وفي نهايات العام الدراسي لإلحاق الأذى بأكبر عدد ممكن من التلاميذ !!

كأني لا وجود .. فعمي عبد التواب منصرف عني مبحلقاً في الأرض كأنه يعدُّ البرسيم أو يرشه بعينيه.. و في برهة ربط حماره، ثم راح يتجول في منطقة بعينها من حقله، و توقف عند المكان الذي كانت تنزل به جاموستنا معززة مكرمة ملتهمة برسيم عمي عبد التواب . ماذا تراه يفعل ؟ !

_ مالك يا عمي عبد التواب ؟!

لا يرد، و راح يدور حول نفسه في البقعة التي أكلتها الجاموسة .. أهو يشم رائحة الجاموسة الأنثى كما يفعل ذكران الجاموس، خاصة إذا كانت حايكة أو طالبة (١) ؟! .. دقق الرجل في الأرض أكثر، ثم راح يتحرك في خط بعينه و قد ركبه، و سار به إلي غيطنا نحن، ثم توقف بجوار جاموستنا مقلباً النظر بينها و بيني و قد أحمر وجهه، و انفجر بصراخ كثير، أظنه شتماً بذيئاً، و بعد أن هدأ بدا أكثر تهذباً و احتراماً .. قال :

_ يا حرامي يا بن الحرامي .. يا نسل اللصوص !! كيف تترك الجاموسة تلتهم كل هذا البرسيم ؟! إنك ولد ملعون ككل عائلتكم، تحبون الحرام أكثر من أعينكم !!

_ يا عمي عبد التواب .. أو ليست كل هذه الشتائم حراماً ؟! ثم إنك تشتم نفسك حين تشتم عائلتي !!

_ جاموستكم أفسدت حقلي .

_ إذن اشتم الجاموسة، لا أصحابها !! كما أنني لم أرها تأكل برسيمك و كنت قد ربطتها في الوتد، فخلعته، و بمجرد أن شاهدتها، سحبتها إلي حيث تراها الآن، و قلت لها إن برسيمة عمي عبد التواب بالذات، تساوي لديه شجرة زيتون أو مانجو، إياك أن تأكليها !!فردت عليّ : لهذا كان طعمها لذيذاً !!

_ من هي التي ردت عليك ؟!

_ الجاموسة .. يا عمي !!

حينها ارتعشت شفتا عبد التواب منبئة بابتسامة، ما لبث أن بلعها .. فظننت الابتسامة أيضا حراماً !!

و حينها بادرته :

_ يا عمي عبد التواب أنت رجل كبير الشأن، فلا تشغل نفسك بمثل هذه الصغائر .. برسيم .. برسيم يا رجل !! إنه لا يملأ غبيطاً و لا يساوي عشرة قروش .. اعتبره زكاة عن صحتك ومالك وعيالك الفاشلين في المدارس، باستثناء واحداً !!

_ نجح لي ابن واحد، لكن أسرة محمود حزين لم ينجح فيها أحد ..

_ إذن أنت تتجاهلني !!

_ أنت ؟! و أين هو نجاحك ؟! ما زلت تلميذاً في الابتدائية، تلعب الكرة في الجرن، و تصنع الأحصنة من الطين، و تجر الجاموسة أو تركب ظهرها !!

_ لا .. أنت نسيت أشياء كثيرة و مهمة :

سرقة جريد النخيل وقلوبها من نخل قرني صديق، و السطو ليلاً علي حقول الشمام لملء جوال أبيعه صبحاً في السوق، و كذلك – في نقلة نوعيه كبري – مشاركتي عمي صالح في سرقة جاموسة " برعي " !!

_ يخرب بيتك !! جاموسة كمان ؟! كيف حدث هذا ؟! متي ؟!

أدركت أنني قد استدرجت عمي عبد التواب إلي عالمي، و أن لدىّ ما يحتاج الاستماع إليه .. فتمنعت :

يا عمي عبد التواب، هذه أسرار الليل، و رجال الليل،لا علاقة – لك أنت بها .. بل ولا قِبل لك بأحداثها .

قل يا ولد متي و كيف حدث هذا !!

بشرط .. أن تخبرني أنت عن هوجة عرابي .

موافق .

كنا بعد العشاء مباشرة .. وكانت الليلة حالكة، و أصوات الذئاب بدأت تشق صمت الحقول .. و إذا بصوت عمي صالح قادماً من أمام بابنا، مكتوماً أو هو ما بين الانكتام و الانطلاق : واد يا حزين .. يا حزين لم يكن أبي موجوداً و قالت لي أمي : لتنظر لِمَ ينادي صالح .. فخرجت إليه فمد لي حبلاً طويلاً و قال أمسك هذا .. أمسكته و سار أمامي عن بعد .. و أنا أسحبه حتى وصلنا إلي جنزم (٢) الشيخة مريم، و قال لي اربط الحبل في هذه النخلة، و إياك أن تخبر أحداً .. و عدنا معاً إلي حيث أتينا .

كل هذه الحكاية من أجل حبل طويل، تجره في الظلام، و تربطه في نخلة ؟ !

لم أخبرك .. لقد كان في آخر الحبل جاموسة .. أما أنا فلم أجر الجاموسة، بل جررت الحبل، و الحبل هو الذي جرها .

يا حرامي !!

لست أنا الحرامي، بل الحبل !!

و ماذا فعلت أنت و صالح بعد ذلك ؟!

انتظرنا أن نحصل علي " الحلوان " (٣) لنعيد الجاموسة إلي برعي .. و مازلنا ننتظر منذ عام حتى الآن !!

نعم ؟ !

لقد صرخت الذئاب حولها، فظلت تفرك و تشد الحبل حتى قطعته، و هربت إلي دار صاحبها .. لعنة الله عليها !!

هذا الرجل فلوسه حلال .

و عليك أنت أيضاً أن تحلل هذه الحكاية التي كشفتها لك.. ماذا حدث بشأن عرابي؟!

ما تفعله أنت و غيرك من سرقات صغيرة، وما تمارسه عائلتنا من ظلم للفلاحين وتشغيلهم في الحقول بدون مقابل، وقتل بعضهم، وطرد آخرين من عششهم و أخصاصهم، ليس بعيداً عن عرابي و هوجته، أو ثورته.

يا عمي صحصح معي .. لقد تداخلت الأمور لديك.

لا .. إن هذا يعني فقدان الأمن، ويعني ضياع العدالة، و يعني أن الشعب راح يأكل بعضه بعضاً .. بعد أن أكله الأجانب.. لقد سيطروا يا ولدي علي البنوك و الأسواق و الشركات و الوزارات و قناة السويس.. واعملوا الربا في الناس حتى سلبت أراضي صغار الفلاحين .. و أوقعونا في الديون.. وساعدهم في هذا جميعاً الخديوي توفيق، فأحس عرابي بهذه المظالم جميعاً، وهو قائد كبير بالجيش، و خاصة حينما وصلت المظالم إلي الجيش نفسه، وراح رفقي باشا وزير الحربية يضطهد الضباط المصريين و كان أكثرهم صغاراً.

لكن عائلتنا لم يكن بها ضابط في الجيش حتى يحسوا بهذا الاضطهاد .. كما أن أحداً لم يأخذ منا أرضاً في ربا أو غيره.

ربما كان عدم و جود ضباط من عائلتنا في الجيش سبباً في دعمنا لعرابي .. لأن الغضب حلَّ علي جدنا حزين أغا قبل عرابي بزمن طويل.

غضب الله؟!!

لا .. غضب الخديوي إسماعيل .

أكان يعرفه ؟!

نعم .. معرفة عميقة .. لقد تم تشكيل أول مجلس شوري نواب (٤) من خمسة و سبعين عضواً يمثلون الأعيان في كل أقاليم مصر، و كان منهم حزين أغا ممثلاً لمديرية الفيوم و بني سويف. وأقام إسماعيل هذا المجلس اقتداءً بأوربا التي كان يسعى لتقليدها في كل شيء .. لكن أراده مجلساً شكلياً .. فأصدر بعض الفرمانات أو القرارات التي رفضها المجلس، و تصدي له حزين ضمن من تصدي من الأعضاء، و حاول الخديوي بالترهيب و الترغيب تمرير قراراته .. فأبي المجلس، فأصدر فرماناً بحله .

إذن حُلّت الأزمة .

لم تحل .. لقد تعقدت ..رفض الأعضاء قرار الحل و ذهبوا لعقد جلسة .. فأغلق الخديوي الأبواب بالجنازير في وجوههم لمنعهم مما اعتزموه .. لكنهم لم يرعووا، و أصروا علي استمرار دورتهم الانتخابية كاملة .. و بعد نهايتها أصبح حزين من المغضوب عليهم ..

و ما حكاية " الأغا " هذه ..

لا حكاية لها .. إن جدنا كان تركياً ـــــ ويقال إن امه هي التركية ـــــ وهذا لقب لبعض الأتراك _ لا المماليك _ و كان كذلك " سنجقاً " للفيوم ..لكن أوضاعه اهتزت بعد غضبة إسماعيل، و لم يلحق أي من أبنائه بالجيش أو المناصب المهمة، و بالتالي ورث أبناؤه هذا العداء للخديوي إسماعيل و ابنه توفيق، حتى و جدوا في عرابي وسيلة للمقاومة، فانضموا إليه حينما ثار في وجه توفيق، و حاول خلعه .. ثم قدم الإنجليز إلينا في جيش جرار – و كانوا موجودين كمدنيين من قبل – فراحت عائلتنا كعائلات أخري تزود جيش عرابي بالمؤن و الأسلحة و المال، و حينما انتهت السيولة المالية لديهم باعوا أرضاً كثيرة بتراب الفلوس، ليواصلوا دعم عرابي و رفاقه .. و كان همزة الوصل بينهم و بينه الزجال عبد الله النديم .

إذن باعوا كل أرضهم، أو ضيعوها في هذه الأحداث .

لم تكن كلها .. لكن الكارثة الأكبر وقعت بعد هزيمة جيش عرابي .. لقد تم التنكيل بهم، فاستولت السلطة علي الكثير من أراضيهم، و تم نفي بعض نشطائهم، فاتجه عدد منهم إلي قنا، و سوهاج، و اتجه آخرون إلي أبو حماد في الشرقية .. و لم يترك لنا الآباء و الأجداد إلا أقل القليل من الأراضي يا بني .

لم يكن الأمر إذن تبديداً من أمثال جدي محمود ولا طلبه للأراضي علي النساء و الكرم .... أما قلت لي هذا من قبل ؟ !

لقد بددوا ما بقي في أيديهم .. و كانت أراضي " حمض " (٥) .. و لم يكونوا قد اعتادوا الكدح لإصلاحها، و كذلك أصروا علي حياة الرفاهية، فراحوا يضيعونها فداناً وراء آخر، حتي لم يبق لنا إلا الفتات !!

قلت لي إن جدنا كان أغا تركياً .. فما الذي أتي به إلي هنا .. لِمَ لمْ يبق هناك في بلاد الأتراك ؟ ! أتستطيع أن تتحدث باللغة التركية ؟ ! ربما كانت شتائمك اليوم لي بهذه اللغة، لأني لم أعرف منها شيئاً و أنت ثائر ..

يا ابن الـــ ... أنت ذكرتني .. يا حرامي يا نسل الحرامية .. قم من و جهي ! !

هـــــــوامش

١- حايكة، أو طالبه : إذا كانت الجاموسة أو البقرة في حالة نشاط جنسي، و تريد اللقاح من ذكر .. وحينها تفتح فكها و تغلقه " علي الفاضي " كالمرأة التي تمضغ اللبان !! ثم تصدر أصواتاً مستكينة يدركها صاحبها .. فيذهب بها إلي صاحب الذكر – و الذكران قليلة جداً عكس الرجال !! – فيرمي عليها الذكر أي يقفز عليها و يعاشرها جهاراً نهاراً كحق من حقوق الحيوان !! لا تستر نفسها ولا يطاردها أحد، ولا تهاجمها شرطة الآداب، بل يقف صاحبها ليرفع ذيلها حين يقفز عليها الفحل، أما صاحب الذكر أو الثور فيمسك عضوه ليضبطه علي " حيا " الأنثي حتى يلجه !!

٢- الجنزم أو الجرزم : هو الاثنان أو أكثر من النخيل الملتصق – أي صنوان – و قد يقال علي الثلاثة و الأكثر من النخيل المتقارب في بقعة ما، و يمكن أن يقال كذلك، أو كنا نقول نحن : الوادي .. أما الشيخة مريم، فهي شجرة ضخمة متشعبة ملقاة معظم فروعها علي الأرض، و بعضها في السماء .. و الناس تتبرك بها، بأن تنذر لها نذوراً، و تضع الشموع في حفرة بأحد سيقانها الهائلة فتنير الطريق ليلاً خاصة في تلك الليالي الحالكة بالحقول، قبل وصول الكهرباء .. و قد يقتطع البعض أوراقاً قليلة منها – بعد استئذانها – لوضعها علي رأس المريض، أو في الحافظة لتدر الرزق .. أما أنا فكنت حريصاً علي التبول علي تلك الشجرة ذهاباً و عودة من مدرستي !!

٣- الحلوان : إتاوة يفرضها السارق للماشية، علي المسروق منه حتى يعيدها إليه، و إذا بادر المسروق بإبلاغ الشرطة عن اللص أو من طلب الحلوان فلن تعود إليه ماشيته أبداً، و قد يعاقب بسرقة أخري أو حرق زرعه .. و كان الغالب أن يتوسط أحد المتصلين باللصوص بين السارق و المسروق لحل هذه المشكلة .. و ربما كان الوسيط هذا هو اللص نفسه لكن لا أحد يصرح بهذا . و إذا لم تنجح العملية فهناك من يبيع هذه المواشي في قري بعيدة و أسواق بعينها .. و بعض قري الفيوم .. و منها بياهمو – اشتهر ناس فيها بسرقة الحمير، ثم طلائها، لا علي سبيل التجديد و التطوير، بل للإخفاء و التمويه قبل البيع ! ! و أخشي ما

أخشاه أن يعلم بعض الفنانين التشكيليين بهذه الحيلة، فيجمعون " حمير البلد " و يعيدون طلاءها، و يعرضونها في معارض، بصفتها لوحات فنية تجريدية !!

٤- مجلس شوري النواب : أول برلمان في مصر، أنشيء عام ١٨٦٦ و ظلت هذه الدورة حتى ١٨٦٩ .. و هناك كتاب أصدرته دار الكتب المصرية عام ٢٠٠١ بعنوان (محاضر مجلس شوري النواب – الهيئة النيابية الأولي) دراسة تحليلية للدكتورة سعيدة محمد حسني، تحقيق د . عبد الرازق عبد الرازق عيسى – الجزء الأول .

وفيه التشكيل الذي يضم حزين أغا ضمن أعضائه، و قد حمل لقب " الشيخ " بمعني نائب البرلمان.. و تردد اسمه حيناً : حزين جاد، أو جادو .. و غالباً : حزين أغا .. وكان رئيساً لإحدى اللجان، و عضواً بما يشبه الآن هيئة مكتب مجلس الشعب.

٥- الأراضي الحمض أو المطبلة : أي التي ترتفع فيها نسبة الملوحة، حتى تكاد تطفح بالأملاح.. وتحتاج إلي رعاية ضخمة لتصلح للزراعة، من مياه، و"ركش" أي حصيات جافة من الطمي تنقل إليها من حقول أخري لتخف بها نسبة الملوحة.

- ١٣ -

أجمل الأيام لديّ أيام المطر و الرعد و الأعاصير المقلعة للأشجار بجذورها .. فتسد الطريق الترابي الممتد من بيتنا في الغيطان حتى مدرسة العجميين الابتدائية للبنين – و بها بعض البنات، و كانت مدرسة البنات بها بعض العيال كذلك .

الطريق يضحي معجنة، أو موحلة – أخلع حذائي " القماش الكاوتش " و أغوص فيها، و تخلع شباشب بقية زملائي من التلاميذ المتجهين معي إلي المدرسة صباحاً، أما رمضان صديق فلم يكن يخلع شيئاً .. فهو يلبس حفاءه دائماً : متجهاً للمدرسة أو بالحقل أو المنزل، و إذا كنت أخشي علي بيجامتي البنية اللون التي اتخذتها زياً للمدرسة – و لم تكن هناك أزياء لها – فارفع السروال تشميراً، فان الواد رمضان لا يخشى علي ثوبه المنقش بدم البراغيث، و قد انعدم لونه ولا شيء تحته من الملابس الداخلية، و صدره مفتوح من أعلي، و ذيله تآكل من أسفل ..

كنا درجات، هكذا في الملابس، و في الحقائب المدرسية، و أشهد أني كنت في مرتبة متوسطة،لا أنا رمضان، و لا أنا كابن العمدة .. فمع البيجامة التي أحافظ علي نظافتها، وأخلعها بعد العودة من المدرسة لألبس جلباباً، و مع الحذاء الكاوتش و ثمنه خمسون قرشاً أو أقل كنت أضع كتبي و كراساتي في "مخلة" فصلّها لي الخياط من نصف متر قماش جديد.. آخرون لم يكونوا يملكون بيجامة مثلي ولا تحدثني عن المريلة فهذه زى "مِنَسْوَن" لم يكن يقبل عليه سوى قليلين منهم البنت "سلامة" الأكبر مني بسنة واحدة كانوا يلبسون جلابيبهم المنزلية في المدرسة، و يحملون حقائب من البلاستيك أو الخيش، تقتطع من أجولة السماد الفارغة، و يخيطونها في منازلهم .. ومن لا يملك مخلة كمخلتي هذه وتحديداً رمضان قرني يحمل كتبه بين يديه، وحينما يأكل رغيف الخبز بقرص الطعمية صباحاً متجهين للمدرسة، يضع طعامه علي غلاف الكتاب، حتى يتزيت، ويلتوي، ويلتف حول نفسه، و يتهرأ، وينقطع، ثم تقطع الورقة التالية للغلاف بالكيفية نفسها، ومع مرور عدة أشهر من العام الدراسي، نري رمضان حاملاً بين يديه لفافات مزيتة، لا كتباً دراسية. ومع الشتاء اللاسع لقدميه وأصابعه نراه يتقافز علي أطراف الأصابع، كما لو كنت تضع برغوثاً علي صفيح ساخن!!.. خيوط واهية من الذاكرة تربطني بالمدرسة الابتدائية، منها رمضان هذا كأعظم نماذج البؤس التي كلما استعرضتها لابنتيّ "آية وبسنت" اقشعرت أبدانهما، ولا تكادان تصدقان!!

خيط ثانٍ لبؤس آخر أسحبه من الماضي، وإن كان بؤساً عزيزاً شامخاً!! إنه الشيخ محمود العجماوي.. الأخ الأكبر لمأذون البلد شبه الثري الشيخ عبد الفتاح العجماوي.. قدم إلينا الشيخ محمود في السنوات الأولي للدراسة، محفظاً للقرآن الكريم، بجلبابه وعمامته النظيفتين، ولم يكن "كالفقي" الذي يرد دارنا.. لأننا لم ندفع له بالمدرسة مقابلاً.. وإن نفحناه بعد ذلك نفقات ضئيلة في الكُتّاب.. لقد ذهبنا إليه في كتابه بجامع الشيخ العجمي مدفوعين بحبنا لهذا العجوز المسلي والودود.. فلم تمتد يده إلينا بعصا ولا لطمة ولا صفعة.. من كان يخطيء من التلاميذ، يمد فمه إلي أذنه ويعضه خفيفاً، أو يحك ذقنه المشعرة بوجه التلميذ فيستفز جلده !!

كنا نظن الرجل ثرياً، سواء بعد أن عرفناه بالمدرسة، أو في الكتاب.. قنوع، راض بما نجود به، و بقرش الصاغ كل أسبوع من كل طفل بالكتاب.. و يوماً ذهبت إلي منزله ليشرح لي ابنه أحد الدروس وكان جامعياً فذهلت لما رأيت: كل الكراسي تَخرَّقَ سترها، و بدا حشوها، وتخرقت من كل جانب، بحيث لا تحتمل جلوس أحد.. لكنهم احتالوا علي هذا التهرؤ بقطع خشبية يضعونها فوق الكرسي و يجلسون في حضرة الضيف.. أما مع أنفسهم، فلا جلوس علي كرسي، بل علي الأرض. المتربة.. وحين دخلت رحبوا بي: الشيخ وزوجه وابنه، وراحوا يتداولون ما إذا كان لديهم كوب شاي يقدمونه لي .. وأنا صامت: لا أستطيع الرفض فأجرح كرامتهم، ولا أحتمل الموافقة علي شربة شاي هم أحوج إليها.. وظلت المداولات وتقليب الجيوب: جيوبهم حتى سكتوا، مع انتهاء الدرس، ولم أتناول شاياً ولا يحزنون.. لكني أيقنت بأن هناك من هو أحوج مني، ومن هو مرفوع الرأس و معدته خاوية.

وليست كل ألوان الذاكرة سوداء قاتمة.. فها هي ذي "أبله ليلي" مدرسة الموسيقي تطل من جوانب النفس، ببسمتها الصافية الممتعة، وعينيها الواسعتين الحوراوين، وقوامها الممتليء الأميل إلي القصر، ونهديها الموشكين علي الطيران والرفرفة في سماء الله، وساقيها اللتين حددتا لي مفهومي عن جمال سيقان المرأة مدي عمري. كنا نسميهما "قمعي السكر" ولا عرق فيهما ولا نتوء. وقد حرصت أبله ليلي علي التزكية عنهما بدون مَنٍّ.. فالركبة هي أقصي ما يغطي فيها من حدود.. وقد علمتني هذه السيقان "شقاوة" العيال.. فمع جلوسها أمامي علي الكرسي، و أمامها ترابيزة تفصلها

عن "تختتي" رحت أحلم بما فوق هذه السيقان، وما بينها.. وراح يحلم قلمي الرصاص.. فيرمي نفسه علي الأرض، ويناديني القلم فأهبط إليه، وأرفع عيني إلي هذا العالم الأبيض البض لأدس النظر لأقصي ما أستطيع ثم أتخيل ما لا أري!! ولم تكن هي غائبة عن أفاعيلي فتناديني بما يشبه الغنج واد يا حزين.. بتعمل إيه عندك.. كل شوية توقع القلم بتاعك؟!

معذور هذا القلم!! ومعذور كذلك الأستاذ منعم مدرس الرياضيات.. فإذا كان قلمي أنا وهو في المرحلة الابتدائية يتهافت هكذا علي أبله ليلي، فماذا عساه أن يكون قلم الأستاذ منعم وهو في الثلاثين من العمر؟! لقد اعتاد أن يدخل فصلنا في وجودها فقط فتهب واقفة له، وتبدأ المسامرة، والغمز، والبسم.. وهو يقترب منها حتى يوشك علي الالتصاق بنهديها.. وهي تتراجع لا أعرف في الوقت المناسب أم غير المناسب وهو يتقدم، وهي تتراجع.. حتى تدخل خلف الباب وهو وراءها، و لم يذكر لي الباب ما وقع خلفه بعد ذلك من ضم، أو لثم، أو تقبيل!!

والأستاذة ليلي لا تحب الأستاذ منعم فقط، بل ربما أحبت أكثر منه – حسبما كنت أري – الفول السوداني، و العزف علي الاوكورديون .. فأول خطوات الدرس أن تفرغ حقيبتها المكتظة بالفول السوداني، علي الترابيزة .. ثم تجلس تقزقز، حتى يرتفع كوم القشر .. وفجأة تتذكر أننا أمامها فتقول : صباح الخير يا ولاد .

– صباح النور يا أبله .

و تنصرف عنا مرة أخري، لتأتي علي ما كوّمت من فول، فلا يبقي إلا القشر .. ثم تسحب آلاتها الموسيقية، و تعزف و تغني، و تعزف معها قلوبنا و تغني ألسنتنا بالسعادة !!

و ما بين الشيخ محمود و الأستاذة ليلي، تقف حالة منفردة، يجسدها الأستاذ مصطفي عبد الفتاح مدرس اللغة العربية .. تسلّمنا منذ السنة الثالثة الابتدائية حتى السادسة .. يقبل إلينا مهيباً شامخاً ببذلة ورابطة عنق صيفاً و شتاء، يصفف شعره القصير للخلف، و في يده اليمني جلدة سميكة طولها نصف متر، و يده اليسري متفرغة لحمل الكراسات و الأوراق . يتحدث إلينا الأستاذ مصطفي بلغة فصحي سهلة، و يتحول درس " القراءة " علي يديه إلي نحو و تاريخ و عبادات .. فبعد أن يقرأ أمامنا النص

المحدد، يكل إليّ – غالباً – أن أبدأ بعده بالقراءة : رفعاً و جراً و نصباً و تسكيناً و تنويناً .. فلا تمر مفردة بدون ضبط .. و فجأة يستوقفني : أعرب هذه الكلمة .. لماذا رفعتها أو نصبتها أو جررتها .. و مع تجليّ في القراءة يرتفع صوتي حتى يخترق حائط الفصل المجاور، و يشوش علي من فيه .. فيرد إلينا مدرسه مطالباً بخفض صوتي في القراءة، و أخفضه حتي ينصرف، ثم ترتفع الشحنة لديّ ليعود كما كان .. فلا يليق بالنحو أن يُستر .. كما أن الفصاحة علي لساني كانت ترفض دائماً أن أنطق مفردة " الأرنب " أو " الأرنبة " فهذه – كما بدا لي – مفردة .عامية، و مثلها " الأرض " و أنا أري الهمزة تسد عين السيليين، و علي الرغم من ذلك انطقها "قافا" فهي القرنب، و القرض !! ويراجعني الأستاذ مصطفي، فلا أقتنع .. و فجأة يشلُّ هول مطلبه تلميذاً آخر .. و ما كان ذاك الهول سوي أنه يطلب منه القراءة، فيتلجلج من يتلجلج، و يتماسك من يتماسك، و الحل هنا فرقعة عالية في حالة الخطأ – للجلدة السميكة علي مؤخرة المخطيء !!

في حصة الإملاء يطلب من بعض التلاميذ، و يختارهم على حين غرة للخروج إلي السبورة لكتابة جملة كذا و فقرة كذا، فمن يصيب يطلب منا أن نصفق له، ومن يخطيء يركنه إلي السبورة و يطلب من آخر .. فإذا نجح الآخر يأمره بلطم المخطيء علي وجهه : صفعة أو صفعتين حسب حجم الخطأ .. و العقاب الأشد لمن لا أمل في تخليصه من " البلادة " أن يأمر أربعة تلاميذ " بشبحه " علي التختة، فيدفعونه منحنياً عليها للأمام، و يمسك اثنان بذراعيه و اثنان برجليه، ثم ينهال هو بجلدته علي المؤخرة .. و يسمي هذه الحالة " العَبْط " فهو يعبطه !!

متفوقو فصلنا كانوا يحبونه، و البلداء يكرهونه – و أولهم رمضان صديق – و نجمع كلنا علي احترامه و الوجل أمامه .. و لكن تزول حالة الوجل هذه حينما يقرأ علينا القرآن بصوت عذب رقراق شجن كعزف ناي .. ثم يلقي علينا فروض الصلاة عملياً : فيخلع حذاءه، و يتخذ القبلة، و يقرأ القرآن، ويركع، و يسجد، حتي يسلّم أمامنا .. و قد ترسمتُ دربه في جل الأمر : اللغة و النحو و الصرامة و الجدية و الرقة أحياناً .. إلا في الصلاة !!

هذا الرجل المهيب الأريب، تسلل إليه عيب دنيء : إنه الرغبة في استغلالنا بمنحنا دروساً خصوصية .. و كثيرون ذهبوا إليه بداره خوفاً و طمعاً .. و لأنني أطمح لكسبه دائماً، و دوام رضاه عني ذهبت إليه كما يذهبون .. صعدنا فوق السطح، و فرشت لنا حصيرة، و انتظرنا قدوم الأستاذ المهيب ذي البذلة و رابطة العنق و الجلدة السميكة .. و بعد انتظار هلّ علينا شخص كما لم يكن هو : يرتدي جلباباً صوفياً بلدياً أسود، تآكلت أكمامه الواسعة، و تهرأ ذيله، و كش و كش حتي أوشك علي فضح ركبتيه .. و لم نكن في حاجة إليهما كحاجتنا لركبتي الأستاذة ليلي !! أهذا هو الأستاذ مصطفي ؟!! هنا لا جلدة و لا عصاة و لا بذلة .. إنها ابتسامة دائمة و تدليل و تبسط .. و ما كاد الرجل يأخذ أطراف الدرس، حتي فتح باب لحظيرة الدواجن المجاورة لنا علي سطح المنزل .. هجمت علينا الدجاجات و الديوك، و انتشرت فوق السطح، و في برهة خرجت علينا زوجته – التي لم تكن تطلع علي أحد أو يطلع عليها – فكان هو أميل إلي الوسامة و الرقة منها .. صرخت الزوج السمراء – و كان أبيض – امسك يا مصطفي، حلّق يا مصطفي .. و راح مصطفي يجري وراء الدجاجات، و يقع و يقوم، و يمسك واحدة و تفلت أخري .. و نحن في ذهول !!

حينها رأيت أنني قد ملكت مثلبة علي الأستاذ المبجل، و أضحى لديَّ فرصة لاستغلاله .. فترددت عليه في الدرس الخصوصي – مع زملائي – ثلاثة أشهر، و كان سعر الدرس طوال الشهر خمسة و خمسين قرشاً .. و لم أدفع منها مليماً حتى هذه اللحظة، و مات الرجل و في رقبتي له حوالي جنيه و نصف، و في يديه وملابسه المنزلية آثار الدجاجات التي كان يمسكها كل يوم – و لي عليه أمام خلق الله في الدنيا و الآخرة مثلبة سأعيِّره بها إذا طالبني بحقه !!

آخر عهدي بالمدرسة الابتدائية " رجب الفراش " و خديجة الفراشة " .. و قد اعتادا كل عام أن يصحبا " شهادات " نهاية السنة الدراسية، في شكل ورقة مقواة ترصد بها تقديرات التلميذ في شتي مواد الدراسة .. و حينما يأتيان تجاهنا يعد يوم عيد بالنسبة لمن هم مثلي، و محزنة لآخرين .. و قبل أن يقدما الشهادة لأمي، يطلبان " الحلاوة "

فكانت حلاوتهما خمسة قروش أو عشرة .. ثم أقرأ ما رصد لي من الدرجات : جيد جداً .. جيد جداً .. جيد جداً في كل الخانات .. إلا الحساب فهو جيد أحياناً و مقبول غالباً .. و هكذا ظل هذا الحساب أكبر عناصر ضعفي في المدرسة الابتدائية، وظللت أكره مدرسه، حتى أنني لا أريد أن أذكر أن اسمه أحمد عبد الفتاح زايد !! .. و حتي هذه اللحظة أكره الحساب ولا أحفظ جدول الضرب، و أكره أن يحاسبني أحد، و إن كنت لا أكره أن أحاسب الآخرين !!

في المدرسة الابتدائية .. أكنت طفلاً وديعاً هادئاً صامتاً ؟ ! أكنت تلميذاً مشاغباً شرساً عنيداً همجياً ؟ ! أكنت متمرداً منفلتاً غير عابيء بدين ولا أخلاق ؟ ! أكنت ورعاً متصوفاً ديناً قنوعاً عابداً ؟! كنت هذا جميعاً طوال المرحلة الابتدائية و شطراً من المدرسة الإعدادية .. خلال تلك السنين تقلبت بين هذه المتناقضات كلها .. فأنا حينا " العيل " الشرير الذي حشد حوله مجموعة من أمثاله المشاغبين، و أطلق عليهم مسمي (فرقة الأسود) وراح في الفسحة المدرسية يدربهم علي الجري، والضرب، و القفز فوق الأسوار و أشجار " حوش " المدرسة .. بل وزودهم " بنفير " المعارك: صفارات اشتروها جميعاً، وبعد نهاية العام الدراسي ينبثون بين التلاميذ، فيضرب أحدهم هذا التلميذ علي قفاه، أو يشوطه بركلة في المؤخرة، أو يخطف منه طعامه، أو كراسة أو قلماً .. فإذا استسلم التلميذ المجني عليه، أفلت الجاني من (فرقة الأسود) بجنايته .. و إذا اعترض أو ردَّ أو حتى أمتعض، انطلق الصفير من عضو الفرقة، فنعرف جميعاً مصدر الصفارة و نهرع إليه لنشبع المحتج المتبرم لطماً، و نجرده من ممتلكاته المدرسية، ثم نهرب !! أما أنا فلم أكن أحب خطف شيء من أحد .. أبيح لأتباعي كل شيء، و ألزم نفسي بشيء واحد: البنات.. وخاصة البنت "عفاف" زميلة الابتدائية، و كنا في نهايات المرحلة و أكثر البنات "عيلات" مثلنا.. طفلات بريئات.. أما تلك فقد حملت فوق صدرها ما لم تحمل أخريات، بروزان يرتجان وهي تسير واثقة الخطو، شامخة الأنف، منتصبة القوام .. وكأننا لا نملأ عينها!! في غفلة منها أوحي لأحد مرافقيّ من أتباعي، ليدفعني إليها، وارتمي عليها، واحتضنها، وأحاول التماسك بالقبض علي بروزيها الطريين. ثم ألوذ بالفرار، لا خوفاً منها، بل إحساساً بارتكابي ما لا يرتكبه الآخرون.. في يوم آخر كنت أقتنص قبلة، وثالث أمد يدي لما بين فخذيها!! وفي كل مرة أصارحكم كنت أغرق طوال الليل في هواجس أن تشكو لأبيها، لينقل شكواه بدوره لأبي، و يا لها من فضيحة.. و لكن للغرابة لم تفعل شيئاً من هذا القبيل.. ولم أتجاوز أنا هذه الأفاعيل إلي الحديث معها أو التودد إليها.. لِمَ أتودد؟! ولا هدف لي سوي هذا العبث.. لكنني مع المرحلة الإعدادية تعلمت سلوكاً آخر غير الخطف والقنص، مع البنت (هويدا) ذات النهدين المغرورين الممتلئين عزة و إباءً أمامنا نحن "العيال".. كانت أنثي ربما تسبقني بعام أو أكثر لرسوبها عاماً في الابتدائية .. ولأنني لم أتعود أن أحاور

فتاة، أو ألعب معها، أو أراها كائناً مثلي.. لم أحاور هويدا رجلاً لأنثى .. بل أردت أن أقهرها مباشرة حتى تسلم لي، وقد أدركت أكثر من ذي قبل بحاجة ما لي تجاه فتاة ما، ولم أعد تلميذ الابتدائية .. و بعد محاولات عدة للقبض علي ثمرتي صدرها في زحمة الخروج من الفصل، و بعد أن ردت عليّ – كل مرة – بلكمة في صدري، أو عض يدي، رحت أخرج إلي السبورة، و أفرض النظام علي الفصل، بدون تكليف من أحد .. و حتي من انتخب رئيساً لهذا الفصل من التلاميذ، ألزمه الجلوس في مقعده، و أقف أنا حاكماً للجميع .. فلم أكن أعترف بهذه الألعاب العيالية من انتخابات للطلبة و ما شابه ذلك .. فليتقدم من يتقدم بترشيح نفسه، و أنا لا أفعلها أبداً، و ليكن الحكم لي في النهاية علي هذا الفصل، و بعد الخروج من الفصل علي سائر تلاميذ المدرسة .. أقف إلي السبورة إذن، لأخط اسم أي تلميذ يخرق النظام في غياب المدرسين .. و أول ما أفعله أن أكتب اسم (هويدا) فيتناثر الغضب هواء نارياً من فمها و أنفها .. فلا هي تستطيع أن تشتمني، و لا هي محتملة لجرح كبريائها بأن يكتب اسمها علي السبورة هكذا من عيل مثلي .. لكن المدرس حينما يلج الفصل لا يفعل سوي مسح اسمها و يقول لي : سماح هذه المرة .. و أدرك أن الاسم لو كان لولد ما كان هناك سماح ولا يحزنون، و لنال من لسع العصاة علي يديه .. لكن هويدا الجميلة ذات العينين الواسعتين، و الوجه الأبيض المضيء – و إن تخلله بعض النمش – و النهدين الرجراجين، فوق الضرب أو التوبيخ من المدرسين .. أنها زهرة الفصل العبقة .. و إن نالتها بعض لسعات العصاة حين تفشل في الإجابة عن بعض الأسئلة .. و لم تكن سوي تلميذة أقرب إلي البلادة .. و لأول مرة بدأنا – تلاميذ رجال – نحس بتوتر و ربما تمرد أو صدمة أو جرح للكرامة أو غياب للعدالة، و نحن نري هويدا تخطيء أحياناً في حصة اللغة الإنجليزية، لتضاف إلي مجموعة من التلاميذ الخطائين، وننظر – نحن المتفوقين – أن تضرب مع من يضربون، فإذا بمدرس اللغة الإنجليزية " الخسيس " يعفو عن الجميع من أجل هويدا !! لماذا هويدا .. لماذا هويدا ؟ ! ربما الخوف من أهلها، ربما الطمع فيها، ربما ما لا ندري .. لكن ثغرة ما حفرت في داخلنا منذ تلك اللحظة !!

هذه التصرفات الرعناء لم تقف عند حدود التنغيص علي زميلاتي الحلوات – فقط – أنما امتدت في المدرسة الإعدادية، و اتسعت دائرة العنف لديّ، لتحتوي تلاميذ قرية

(تلات) المجاورة لنا .. و كانوا يدرسون بمدرسة العجميين الإعدادية .. هم قادمون إلينا ولا يعرفون عني سوي اسم عائلتي وهذا كاف لإرهابهم – لكن لم يكن من أبناء هذه العائلة سواي من يحترف العراك والمشاغبة، ولا حتي أبناء العمدة.. وإذا كان التلاميذ يسلمون لأبناء العمدة، القياد، بصفتهم الأسرية هذه .. فعليّ أنا أن أنتزع التسليم لي بجهدي الخاص .. فأخذت ألتقط الواحد منهم ذاهباً إلي بيته عقب اليوم الدراسي نهاية الأسبوع، وأشبعه لطماً ولكماً لأسباب واهية.. وأعول علي نسيان الواقعة يوم السبت مع الأسبوع الدراسي الجديد .. لكن منهم من لا ينسي، فيخرج شاكياً في طابور الصباح للأستاذ أحمد أبو المجد، منظم هذا الطابور ومدرس التربية الزراعية فيستدعيني الأستاذ أحمد أمام التلاميذ جميعاً، و أنا أرتعد، لا منه، بل خوفاً من أزمة كبري ستنشأ.. لأن أحمد أبو المجد هذا هو بعبع المدرسة سواء بالنسبة للتلاميذ أو حتي المدرسين، وإذا تجرأ عليّ فسوف أرد، و سيتطور الأمر إلي أزمة ستخرج عن سيطرة المدرسة .. هذه الهواجس تنتابني و أنا متجه إلي وسط طابور الصباح حيث يقف أبو المجد كالنمر، و أحدث نفسي : لم كل هذا العنف والتهور، ضد زملاء لم يسيئوا إليّ ؟! لا أعرف !! هكذا أحدث نفسي حتى لحظة الوقوف أمام الرجل، وانتظار نقطة التصادم .. فإذا به يغمز لي بعينيه، و يقول : أنت تلميذ مجتهد وشاطر .. ولن تفعلها مرة أخري، و تعتدي علي زملائك .. أليس كذلك.. هه؟! وبصوت هامس: انطق يا حزين وقل نعم.. فيعلو صوتي: نعم يا أستاذ أحمد.. نعم.. لن أضربهم مرة أخري.!! وحينها لم أشغل بالي بأن ثغرة ما راحت تحفر في نفوس هؤلاء التلاميذ منذ ذلك الوقت !!

من النقيض للنقيض كنت أنقلب .. لم أفكر حينها، و لا أتذكر داعي الانقلاب .. فمن هذا الطفل الصبي المشاغب العنيف إلي طفل وديع يتردد علي الشيخ محمود في كتاب الشيخ العجمي، أحفظ القرآن، ثم تتطور نزعة التصوف لديّ لأحصل علي "العهد" من الشيخ محمود منتمياً لأحدي الطرق الصوفية .. ويتدرج معي شيخي في التسابيح والتراتيل والأوراد .. فكلما حفظت منها شيئاً كلفني بترديده عدة مئات من المرات كل يوم و أظل هكذا علي الأوراد نفسها، منتظراً رؤياً في المنام، فإذا وردت إليّ حكيتها للشيخ محمود، فنقلني مرحلة جديدة بأوراد جديدة .. ولم أكن مكتفياً بما عليّ منها، بل

كنت أصلي في أبعد مسجد تستطيع أن تصل إليه قدماي طلباً للثواب في كل خطوة و تصل ركعاتي أحياناً لمائة في اليوم.. ثم أراني حامداً شاكراً، إن أكلت، و إن جعت، و إن نمت وإن صحوت.. وكم كانت تفيض عيناي بالدموع فيلتف حولي الأهل و من يراني مستفسراً عن السبب فلا أقول : إنه خوف الله !!

لا أذكر كمّ من السنوات سرت علي درب الورع.. لكن ما أوقنه أنها كانت الأقل في مسيرة حياتي، والأضعف أثراً، فما بقي لي من تذكر تومض فيه "عفاف" المدرسة الابتدائية، ثم "هويدا" المدرسة الإعدادية، وما بينهما وأثناءهما في الأجازة المدرسية "أنهار" رفيقتي في جني القطن، و الارتماء أمامي علي ظهرها بين شجيرات القطن ورفع رجليها بنفسها، وأنا أقف لا أفعل شيئاً!! ثم بعد ذلك "هدي" المدرسة الثانوية.. ولا أكاد أذكر "نادية العسكري" التي كانت تتردد علي أمي في طريق عودتها من مدرسة العجميين الإعدادية إلي قريتها تلات.. وكانت تلميذة " بليدة " في فصلي .. لكنها – بحكم نضجها المبكر – تحلم بالزواج مني، أنا الأصغر منها سناً، و أمي تفرح بنادية العسكري لأنها تكنس و ترش و تنظف البيت بصفتها زوجة قادمة لابنها حزين، الذي يكرهها بدون مناسبة .. و البنت حريصة علي تقديم هذه الخدمات المنزلية كل يوم، و أنا حريص علي الاختباء منها في إحدى الغرف كلما هجمت علي بيتنا، و أمي تنادي لأستقبلها و أهتم بها، فلا ألبي .. حتى حرضت عليها يوماً إخوتي الصغار، فرجموها بالطوب، و هي تعتزم دخول بيتنا، فامتنعت إلي الأبد، و ندمت أنا علي فعلتي هذه : إيذاء فتاة بدون ذنب، حتى أضحي الندم داءَ لديَّ ينمو إلي خشية دائمة من إيذاء هؤلاء الفتيات مكسورات الجناح : قولاً أو فعلاً!!!

هذا النزوع إلي التمرد و التحكم – و إن شئت فقل حب القيادة – رحت أفكر فيه مع تطور نضجي، و أبحث له عن مبررات .. و لم أجد رداً إلا لدي " الحكيم " الذي كان " بومة " من قبل : عمي عبد التواب .. قال لي : يا بني هذا ليس جديداً عليك أو علينا .. خاصة أنك تحمل اسم جدنا الأكبر " حزين أغا " ففي كل هذه الأرض و القرى و العزب المحيطة بنا لم يكن هناك من يأمر أو ينهي سواه .. و الناس لديه كانوا ملكاً للأرض التي يملكها هو، فمنهم سايس الخيول، و تراهم الآن عائلة تحمل اسم السايس، و منهم العبيد، و قد استقروا بعد تحررهم في عزبة تحمل اسم عزبة العبد، و هكذا كان الأمر

بالنسبة لخولي الأرض لديه، و لغير هذا من المهن .. وجدك – جدنا – بدوره لم يكن مستغرباً لديه هذا الواقع، وهذه السيادة .. فقد دفع أبوه نفسه ثمنها من دمه و حياته .. و كذلك فعلت أمه ..

كان أبوه ضابطاً بالجيش التركي، في حامية مخولة بالدفاع عن شمال الصعيد، حين هجوم الفرنسيين علينا، و اجتياحهم الإسكندرية، ثم الوجه البحري و القاهرة، و تخريب الديار و هتك الأعراض، و سفك الدماء و سرقة البهائم .. فلا يتركون خلفهم زرعاً و لا ضرعاً ولا أخضر و لا يابساً إلا أتوا عليه .. و ارتكبوا من الشنائع ما يخجل الإنسان من ذكره .. مثلاً .. مثلاً .. كان بعض جنودهم شواذ جنسياً، فإذا وقعت أبصارهم علي فلاح عفي فرضوا عليه أن يضاجعهم كما يضاجع أنثي، ثم يقفون طوابير ينتظر كل واحد منهم دوره من ذكورة هذا الرجل، هكذا أمام الناس .. و ربما خلعوا ملابسهم فبدوا بأجسادهم البضة اللدنة حتى يغروه .. و حينما يفرغ الرجل من واحد و اثنين و ثلاثة حتى تخور قواه، يطلقون طلقة رصاص واحدة علي ذكره و خصيته !! و يتركون جثته هكذا في عراء الحقول مختلطة بطين الأرض .

والد حزين – جدنا– بصفته ضابطاً في الحامية التركية كان مطلعاً علي هذه المآسي .. و احتشد مع غيره من الأتراك و جيش المماليك بقيادة مراد بك في منطقة اسمها (سدمنت) عام ١٧٩٨ تصدياً للفرنسيين المتجهين إلي الصعيد (١) و دارت معارك شرسة بين طرفين غير متكافئين، هزم فيها الأتراك و المماليك،و استشهد من استشهد – و منهم والد حزين – و جرح من جرح، و استمر تغلغل الجيش الغازي في بلادنا. كانوا يرابطون في مواقع بعينها خارج التجمعات السكنية في المدن و القرى .. ثم تخرج منهم سرايا مسلحة تقتحم هذه القرى – و منها قريتنا – فتستولي علي المواشي، وذهب النسوة، و يقتلون من يقاومهم .. لكن أسوأ مسلك كانوا يرتكبونه الرهان علي النساء الحوامل : فجماعة من الجنود تدعي أن برحم الحامل ولداً، وجماعة أخري تراه بنتاً .. ولكي يحسموا الرهان لصالح أي من الطرفين يبقرون بطن المرأة، و يخرجون الجنين !! وإذا كان الشواذ منهم يفرضون مضاجعة الرجال – المصريين – لهم، فان الأسوياء كانوا يغتصبون النسوة في دورهن.. وبعد معركة سدمنت و صل تسعة من هؤلاء الجنود إلي قريتنا، علي سبيل النهب والسلب والاغتصاب.. واقتحموا

دار أرملة الضابط الشهيد، وكان حزين حينها في يومه الأربعين، وحاول هؤلاء المفترسون اغتصاب أمه، فأبت واستعصمت بكل ما لديها من إرادة حتى أطلقوا عليها الرصاص (٢) لينشر دمها علي طفلها الرضيع، في آخر لحظة احتضان له.

في هذه المعركة الصغيرة الحقيرة كانت تعمل سريعاً و وسيلة الإعلام المهمة حين ذاك، بأن يخبر كل واحد جاره الملتصق به بما يجري في بيت الضابط التركي الشهيد، و كان المنزل الملتصق به مباشرة داراً لأخوة الزوجة الشهيدة .. إنهم رصدوا اقتحام الفرنسيين للمنزل من خلال "طاقات" أو "كوات" مفتوحة أعلي الحوائط بين هذه البيوت ومع نقلهم الخبر للآخرين من الرجال في البيوت المجاورة من خلال هذه الكوات أو الثغرات .. كانوا يستعدون بما لديهم من سلاح بسيط، وكانوا كذلك يرصدون مدي حرص أم حزين علي شرفها و دفاعها عنه : إنها ميتة ميتة، إذا فرطت فيه قتلها أهلها، و إن لم تفعل قتلها الفرنسيون، فاختارت الأخرى.. و قبل هروبهم بجريمتهم كبس أهل القرية علي الدار وجردوا المعتدين التسعة من أسلحتهم، و قتلوهم، وجروهم جر الكلاب في شوارع القرية، حتى اختاروا لهم مدفناً في مقبرة الشيخ بدر ومنذ تلك الأيام هجر الناس زيارة الشيخ بدر(٣).. بل وظلت رائحة عفنة " زخنة " أي ثقيلة منفرة تنطلق من هذه المنطقة، يشمها كل من مر بها رغم مرور ما يقرب من قرنين يا بني.. ومنذ ذاك لم تطأ أرض قريتنا أية قدم فرنسية محتلة.

أما الرضيع "حزين" فلم يكن يحمل هذا الاسم.. إنه سمي اسماً عربياً أصيلاً لا تركية ولا لكنة فيه (محمد). ومع استشهاد الأب في المعارك و الأم في الدار، راحت النسوة تولول و تندب و تقول: يا حزين علي أبيك و أمك .. و هدأت الأحزان، لكن صفة الحزن التصقت بالطفل، فراحوا ينادونه "الحزين" ثم حرفت إلي "حزين" وبعض الناس ينطقونها حُزين بضم الحاء، ولا ضير في هذا أو ذاك.

الطفل إذن يا عمي عبد التواب نشأ يتيماً، ولا عائل له سوي أخواله.. فكيف امتلك كل ما كان من ثراء و نفوذ؟!

بصفته ابناً لشهيد تركي، و صلت إلي الطفل "هدايا سنية" من الباب العالي.. ثم خصص له دخل ثابت، ثم نال إقطاعيات من السلطان العثماني ثم من محمد علي، و نال لقب "سنجق الفيوم" أي واليها أو " محافظها " .. و كانت المظالم حينذاك شديدة علي عامة

الناس، وخاصة ما يتصل منها بتحصيل الضرائب علي الأرض و الزرع .. و كثيراً ما كان يعجز الملاك الصغار عن دفع ما عليهم من ضرائب، فيهجرون أراضيهم و يهربون، فتضاف هذه الأراضي إلي أملاك الأغا.. حتى لم يعد من يملك زرعاً ولا ضرعاً و لانخلاً ولا شجراً غيره في كل هذه النواحي .. و ما عرفناه أن أطراف الفيوم، و أبشواي خاصة في قرية النزلة و ما جاورها، كان يقيم بها موسى ميزار حينذاك و يملك هناك بعض الأراضي، ثم في الناحية الأخرى استقرت عائلة الباسل العربية، و اتسعت أملاكها، و أصبح لها – فيما بعد – دور كبير في الحركة الوطنية المصرية، و خاصة في ثورة ١٩١٩ التي بدأت بتحرك العرب في الفيوم و أطراف القاهرة، ثم انتقلت بعدها إلي القاهرة .

ماذا إذن عن قطب الرجال الذي بصق في فم حزين، فهبطت عليه تلك الثروات؟!

الخضر أو قطب الرجال لم يبصق في فم حزين، بل بصق في أدمغة الناس الذين يرددون هذا الهراء !!!

هـــوامش

١- في كتاب (مائتا عام علي الحملة الفرنسية) الذي حرره د . ناصر أحمد إبراهيم وأشرف عليه د . رءوف عباس – و صدر عن مكتبه الدار العربية للكتاب يناير ٢٠٠٨، ذكر (صفحة ٣١) أن (أولي المعارك الحربية بين المصريين والفرنسيين في الصعيد هي معركة سدمنت أكتوبر ١٧٩٨ و كان الجيش المصري في هذه المعركة تحت زعامة مراد بك يتألف من أربعة آلاف من المماليك، وثمانية آلاف من العربان، بينما كانت القوات الفرنسية تحت قيادة الجنرال ديزيه تتألف من ثلاثة آلاف رجل، وواضح أن عدد الجيش المصري كان يفوق عدد الجيش الفرنسي بكثير، و لكن كان الجيش نفسه يفتقد النظام و التنسيق بين قواته، كما كانت تنقصهم الأسلحة الحديثة المتطورة، بينما نجد الجيش الفرنسي بالرغم من قلة أعداده كان يتميز بالنظام و التنسيق بين قواته و يملك أسلحة متطورة، وعلي رأسه قيادة حازمة وواعية تتمثل في الجنرال ديزيه. ومع هذه الميزة الواضحة للفرنسيين فقد قتل منهم في هذه المعركة بتقدير المصادر الفرنسية نفسها ثلاثمائة وأربعون و جرح مائة وخمسون. بينما بلغت خسائر المصريين أربعمائة قتيل و جريح).

٢- اعتدنا في طفولتنا أن نربط بين الرجال والنساء ذوي العيون الخضر، وبين اغتصاب الفرنسيين لجداتهم في أثناء الحملة الفرنسية.. وننظر بريبة تجاه هؤلاء، بصفتهم فرنسيين في الأصل، حتى و إن كانوا مصريى الأسماء مثلنا.. فمن أين لهم بخضرة العيون هذه إن لم تكن من تفريط جداتهم في أعراضهن ؟! لقد كنا نعاملهم باحتقار و غمز و لمز و استهزاء لا ذنب لهم فيه!!

٣- آخر ما بقي من مقام الشيخ بدر، و شهدته عيناي حجرة واحدة جرداء، من الطوب الأحمر، بلا سقف و لا بلاط، ولا باب أو شباك .. و كنا نمر من أمامه يومياً ذهاباً و عودة من المدرسة، ولا نعرف لم يسمى الشيخ بدر ؟! ولا أثر فيه للقدسية المعهودة للمشايخ ومقامات القرى كالشيخ العجمي والشيخ حسن و الشيخ محمد عيد بمنطقة أبو جنشو .. و ما كان يصل لمعرفتنا أن الشيخ بدر هذا قديم جداً تمتد جذوره إلي الفتح الإسلامي لمصر، و هو واحد من الصحابة .

حين أدير تروس الذاكرة للأمس البعيد ما بين ثلاثة عقود و أربعة .. يبرز لي التمرد والعناد و الرفض سمات حاسمة في شخصية هذا الطفل .. ما أحببت أن أنصاع لمن يقودني، ولا أندرج في طابور للواقفين أو القاعدين، حتى طابور الصباح المدرسي لم أكن استقر فيه منتصباً منضبطاً، و ما كنت مقتنعاً بتلك الوقفة الطويلة المملة لنسمع كلاماً من الشرق و الغرب، لم يخلد منه في ذهني شيء الآن .. و قد ربا شكي في جدوى هذا الطابور بعد أن رأيت فجأة ناظر المدرسة الابتدائية يعلن أن تحية العلم التي حفظناها ورددناها كثيراً: تحيا الجمهورية العربية المتحدة ولم نكن نعرف ما هي الجمهورية ولا المتحدة !! قد تحولت إلي : تحيا جمهورية مصر العربية .. و قد ظللنا نتلكأ وتتعثر ألسنتنا زمناً في نطقها، و كثيراً ما تداخلت التحيتان القديمتان في أثناء الهتاف بهما .. فما فائدة هذا الطابور ما دام لا يبقي علي حال هكذا؟!! إذن فلأبحث لي أنا عن فائدة من ورائه لأحتمله .. رأيت "الواد محمود" زميلي في الفصل شديد البياض، طرياً، رقيقاً كفتاة ويرتدي بنطلوناً يبرز مؤخرته.. فتحركت أشيائي تجاهه .. و رحت أحرص علي الوقوف خلفه في كل طابور.. ولم يكن و قوفاً بل التصاقاً، و التحاماً و قد انتصب مني ما انتصب.. ومحمود كلما امتدت وقفتنا حاول أن يتزحزح للأمام هرباً، فأعود إليه ملتصقاً.. ثم يدفعني للخلف برفق فألتزم لحظة ثم أعود إلي الالتصاق، حتى نصعد إلي فصولنا .. وقد عزمت علي أن أجلسه بجواري.. و من حين لآخر أخطف منه قبلة .. وبقي الأمر هكذا عامين أو ثلاثة في المدرسة الابتدائية، حتى انتقل إلي فصل آخر .

سمة التمرد و الرفض هذه أوشكت أن تقطف زهرة عمري يوماً ما .. ففي أثناء الأجازة الصيفية كان الأطفال يحتشدون في فرق و ثُلاَّت لجمع بيض الديدان من شجيرات القطن قبل نضجه، حتى لا تأتي هذه الديدان إذا فقس البيض – علي كل الشجيرات، وتدعها كما لو كانت مخلفات للنيران. وفرق الأطفال هذه تنتظم برعاية الجمعية الزراعية، التي تعين لها ملاحظاً من حاملي دبلومات الزراعة.. وعقب كل أسبوعين، يذهب الأطفال لتقاضي أجورهم من الجمعية الزراعية، أظنها كانت ستة قروش في اليوم.. وهو مبلغ مغرٍ لأي طفل حينذاك، و خاصة من الفقراء.. لكن لم يكن الإغراء بالنسبة لي يقف عند حصيلة هذه العملية .. بل في الإفلات من قبضة الأسرة، و

الرغبة في الاستقلال، وفي سماع أغاني "البت سنية بنت أحمد حجازي" التي يتسابق العيال للانضمام إلي الفرقة التي تنتمي لها .. إنها أقرب للدمامة .. لكن غناءها كان جميلاً، و لم أكن أفهمه جميعه، و إن استسغته إجمالاً .

طلبت من أبي، و ألححت، و رجوت أمي، و تودت، بأن أذهب إلي " الدودة " – هكذا كنا نسمي هذه العملية – فلم يوافقا أبداً، و رفض أبي أن أتساوي مع أبناء الحرافيش هؤلاء .. وبعد إصرار علي الرفض منهما ، و إصرار علي خوض التجربة مني انسللت صباحاً، وسلمت نفسي لإحدي فرق الدودة .. و قد صحبت معي – كما يفعلون – منديلا كبيراً ممتلئاً بالطعام .. حتى أجلس تحت نخلة و أتناوله في فترة الراحة بين فترتي العمل.. وحينما حانت هذه اللحظة اتخذت موقعي تحت نخلة، و بجواري

" موتور الرش " (١) و فرشت منديلي بطعامي علي الأرض، و جلست " أنأنيء " (٢) مدة طويلة، ربما تجاوزت ثلث الساعة .. و كان الجو حاراً، و الشمس تحرق كبد السماء نفسها .. و مع نهايات الطعام أحسست خدراً يتسرب لجسدي، ثم بدا رأسي ثقلا وكأنه قد انتفخ بالنوم . و لم أعد في حالة طبيعية تمكنني من مواصلة اليوم عملاً مع بقية الفرقة .. و ظننت الأمر يتعلق بحرارة الشمس و سطوتها . فانسحبت حتى و صلت البيت مرتمياً علي الأرض، أمام أبي و أمي وأخي محمد و جارنا أحمد عبد الصمد .. حكيت ما حدث مشوهاً، فغضب أبي بعنف وأقسم ألا يعالجني مادمت خالفت أمره .. فحملني أخي و الجار إلي مستشفي الفيوم المركزي .. حتى إذا وصلنا للمدينة أرادا أن يستريحا من حملي علي أكتافهما، و أن يهدئا من توتري فدخلنا محلاً للآيس كريم .. وبعد أن قدم إلي طبق منه، رحت أمد الملعقة إليه، فأخطئه، مرة تتجه يمين الطبق و مرة يساره .. أدركت أنني في حالة من اضطراب البصر، بعد إن عجزت ساقاي عن حملي .. و قمنا إلي المستشفي و ما أذكره من بعض ما أسمع – و لم أكن أتمالك أيضاً سمعي – أنهم طلبوا مني خلع ملابسي، و ألبسوني الملابس البيضاء .. ثم انقطعت علاقتي بالعالم بعد هذه اللحظة .

وقتا ما أحسست شكة صغيرة في ذراعي ففتحت عيني، ولم أرَ ما حولي سوي أشباح بجوار السرير .. ثم ازداد إحساسي بهذه الشكة، و رأيتهم يضعون حقنة الجلوكوز الجديدة و يرفعون القديمة .. و تلفت لأرى الزائرين، حول سريري، و عرفتهم .

ما بين معرفة الزائرين و لبس الجلباب الأبيض كانت قد مرت خمسة أيام كاملة : لا أعي شيئاً، لا آكل، لا أشرب، لا أسمع، لا أري، لا أحس .. أضاف من تحدث إليّ بعد ذلك أنني كنت خلال تلك الأيام أهب واقفاً أصرخ، و أحاول الجري، و أسقط، فيدركني الأطباء بالحقن المهدئة و المنومة ..

كانت مادة (التوكسافين) شديدة السمية قد تطايرت إلي طعامي من (موتور الرش)، و تشبع بها الطعام، وأنا غير منتبه لها .. حتى سقطت في هذه الحالة التي لا نجاة منها إلا نادراً .. و بعد خمسة أيام من فقدان الوعي الظاهري – كانت حالات الهياج الشديد التي حكوا لي عنها تعني عنف آلام المعدة و الأحشاء بسبب السموم – بدأت أحلم، لا أن أصعد من هوة المرض هذه، فالأمر محسوم بالنسبة لي : سأشفي، بل أحلم بكل أيامي القادمة : أن أكبر، و أدخل الجامعة، ملتحقاً بقسم اللغة الصينية (٣) بكلية الألسن، وأن أعمل صحفياً،و إذا لم أستطع فلأكن مذيعاً .. و ظللت أعيش حلمي طوال أسبوعين بالمستشفي، حتى استطعت أن أقف علي قدميّ، و أطلقوني لأعود لبيتي، و أتدرب من جديد علي المشي، خطوات، خطوات، خطوات .. حتى ملأت خطواتي هذه – حالياً – قري مصر و مدنها من مرسي مطروح و الإسكندرية شمالاً حتى قنا و أسوان و الواحات جنوباً !!

كانت هذه سقطة موت لا ريب فيها، ساقني إليها التمرد علي الأسرة، و أظنني كنت في أوائل المرحلة الإعدادية .. و لم أكن قد تعلمت من حالة سابقة أخري كانت أقل خطراً علي حياتي، و أكثر ثراء لتجربتي .. تلك الحالة نقص فيها ثلث وزني خلال شهر واحد فقط .. حتى أنني حين عدت لبيتي، صرخت أمي و ما كادت تعرفني : ألحقوني .. الواد ها يموت .. جري لك إيه يا بني يا حبيبي ؟ !

لم يكن أبي يضربني أبداً، و إن كانت أمي تفعلها علي آماد بعيدة .. فكل مسلك أبي تجاهي هو رفض مطلب ما لي، أو التنبيه من خطأ تصرف ما.. ثم يتركني لاختياري بعد ذلك .. و في إحدي أجازات الصيف زارنا واحد من أهالي بلدنا، كان معتاداً التردد علينا، طالباً من أبي حل بعض مشكلاته، أو التوسط لدي آخرين لفض بعض الخصومات، واعتاد أبي مساعدته كغيره من طالبي الحاجة و كل مرة : من أين جاء "محمد كامل"؟! من مصر!! وإلي أين يعود محمد كامل؟! إلي مصر!! وأنا أسمع كثيراً عن مصر القاهرة حتى امتلأ بها خيالي.. أنها علي الأقل مقر الجامعة التي لابد أن أنطوي تحت لوائها يوماً ما.. فكيف لا أعرف المدينة أم الدنيا التي تضم بين جنباتها و في أحضانها "جامعتي"؟! برق في ذهني أن أسافر إلي مصر، مع محمد كامل هذا : لم و كيف؟! ليس مهماً.. المهم أن أسافر. و طرحت الرغبة علي أمي أولاً – و هي همزة الوصل لأبي – فرفضت.. وألححت، فألمحت لأبي ورفض بحسم .. و أنا أصررت كذلك بحسم ورددت: كيف سأصل إلي الجامعة و أنا لا أعرف الطريق إليها ؟ ! لم يذكرا لي سبب الرفض، و بالتالي لم أقتنع به .. و ظللت علي موقفي حتى صمت أبي واستسلمت أمي، وذهبت مع محمدكامل إلي "الجنة الموعودة".. و كانت هذه الجنة – بحكم عمله تاجراً أو بائعاً للبصل والثوم هي "الوكالة" في منطقة "الحسينية".. والوكالة هذه ساحة واسعة مفتوحة، تخزن فيها أطنان من البصل، وتركن فيها عربات الكارو.. ويذهب كل بائع أو تاجر في الصباح الباكر إليها ليحمل أجولة البصل التي تم وزنها، و يضعها علي العربة الكارو ليخرج بها بائع "سريح" إلي الشوارع البعيدة في كل أنحاء القاهرة منادياً : يا بتاع الخزين يا بصل !! حتى يفرغ مما حمل و يعود نهاية اليوم، و قد يهجم عليه الليل، و لما يفرغ بعد .. فيعود منكسراً لا مجبوراً !! في الصباح مع وفود هؤلاء الرجال لاستلام حصصهم " البصلية " يجتمعون ثُلاّت ثلات كل عشرة أو أقل أو أكثر، في حلقة جالسة علي الأرض، و يفرشون أمامهم صنوف الإفطار المعهودة، من فول و طعمية و خبز و بصل طبعاً، ثم تهجم الأيدي افتراساً، وتعمل الأفواه طحناً و ضرساً، و أنا جالس بين هؤلاء "البياعين" جميعاً.. وعليّ أن أفعل كما يفعلون فلا أستطيع سوي رصد حالات التوحش هذه.. قد أدرك لقمة وقد لا أدرك، ولا أحد ينظر لأحد، و لا تستطيع أن ترصد أي يد امتدت، و أي يد رفعت، ولا من شبع ولا من جاع .. و لم يكن ذاك الجائع دائماً

غيري !! لقد اعتدت أن أجلس إلي المائدة، ويمد الطعام أمامي بين أسرتي في إفطار جماعي، لابد أن يفيض عن حاجة الجالسين.. وكل يأكل مما يليه، وكل يمضغ في تؤدة، و كل يؤثر الأخر علي نفسه .. أما هنا فمجموعة من الغيلان تلتهم فريسة !! أما الغداء فكان على أي رصيف في أي ميدان أو شارع.. فلم أكد أصل إلي الوكالة هذه، و إلي الغرفة الوحيدة التي يسكنها محمد كامل وزوجه "صفية" وأبناؤه السود مثل أمهم، حتى تحولت من ضيف إلي "يد عاملة" ينبغي أن تعمل لتأكل !! وكانت هذه اليد في البلد يقبلها هذا الرجل وأسرته بفخر!!.. فقد أرفقني الرجل بأحد الشباب ممن يعملون معه "سريحين" وكان اسمه "صفوت" ولا أدري لم هو صفوت؟! و قد كان قصيراً، دميماً جداً، أسود البشرة، لا يرتدي سوي جلباب واحد علي جسده "المقشف" ثم إنه لا يعرف الحذاء أو "الشبشب" أو "البلغة" إن قدمه يفري الأرض فرياً، و قد تضخمت قدماه و سمك جلدهما حتى ظننت أنه يشقق الأسفلت الصلب إذا سار عليه .. و كأن صفوت هذا مجرد قدمين ألحق بهما جسد بشرى " تقريباً " !! هذا هو شكل الرجل – مع الرفق به – أما مضمونه فقد كان إنساناً سوياً طيباً مهذباً .. أدرك أني " لا بياع ولا حاجة " وإنني كان ينبغي أن انزل عليهم ضيفاً لا عاملاً يسير معه طوال اليوم خلف العربة الكارو أم حمار و أنادي أحياناً مثلما ينادي : يا بتاع الخزين يا بصل؟! فكانت مكافأة الرجل لي سخية .. تقريباً إنفاق كل عائد ربحه اليومي علي الطعام والشراب ونحن نتجول في عز الحر .. فإذا مررنا ببائع عصير القصب، عببنا حتى نرتوي، و إذا مر بنا بائع عرقسوس أفرغنا ماشئنا في جوفنا، مع ما تقع عليه أيدينا من طعام بشتى صنوفه .. و قد كانت هذه و جبتي اليومية الوحيدة تقريباً .. و إن فقدتها كثيراً .. فصفوت هذا غير مجد لمحمد كامل لأنه يعود إليه بربح قليل، و كثيرا ما تشاجر معه لهذا السبب، و منعه من الخروج أياماً في الأسبوع .. و حينها يحل محله .. " علي محمود " الذي ينشف ريقي جوعاً و عطشاً !!

كانت مهمتي أن أصعد إلي بعض الشقق حاملا ما تشتري النسوة من البصل في بعض الأحياء الشعبية التي نتجول فيها، و كنت أري عجباً : فمرة كنت أصعد خلف إحداهن، و تعثرت فوق السلم فطلبت مني أن أحملها، و حاولت، و هي تحتضنني وتحاول بدورها القيام .. حتى قامت، وهرولت أنا عائداً !! و مرة أخري أدخلتني امرأة من هؤلاء الشعبيات إلي شقتها و أجلستني و قدمت لي ماء بارداً، ثم راحت تمد يدها إلي عورتي، و تقول لي : أخبار حمامتك إيه ؟ ! و كلاماً آخر بذيئاً !! و في إحدي المرات دارت مشاجرة بين عدد من الناس، فهمت منها أن رجلاً ما يقيم علاقة جنسية مع امرأة، و يتشاجر مع ابنها، أو ابنها يتشاجر معه، لا غيرة علي أمه، بل لأنهما يتنازعان المرأة فيما بينهما .. و العياذ بالله !!

الابن يطأ أمه !!!

مر يوم و أيام و أسبوع و أسبوعان ولا وسيلة لإنقاذي، و لا حتى أستطيع الشكوى .. فهذا هو اختياري.. ولا أستطيع أن أحمل كامل هذا عبء العودة بي إلي بلدي، وليس بإمكاني أن أعود وأنا طفل وحدي، و ليس هناك من يعود للفيوم ممن حولي .. وهم خليط من محافظات شتي.. وكنت انتحي بنفسي جانباً وأبكي، وخاصة حينما أسمع نجاة الصغيرة تغني " للطير المسافر " أو المغترب " حبايبنا " عاملين إيه في الغربة " !! ولا أتذكر كيف كانت العودة لبيتي بعد شهر .. لكني أذكر أني دفعت ثمناً باهظاً لتمردي: حوالي ثلث وزني، و من حينها أصبحت نافراً من حواري القاهرة، و من ساكنات هذه الحواري.

لم ترتدع طبيعتي المتمردة بمثل هذه الأحداث، بل نما الرفض نمو جسدي وعقلي نفسه .. و قد ظل يتطور تطوري في الحياة، و كانت هذه المرة مواجهه حادة بيني و بين مأمور قسم أبشواي، وأنا طالب بالمدرسة الثانوية .. فقد دفعت بأحد أتباعي من زملائي بالفصل، و كان ينتمي لقرية " أبو كساه " لترشيح نفسه في الانتخابات الطلابية ضد زميل لنا من عائلة الروبي بمدينة أبشواي نفسها .. و كنت آنف أن أقحم نفسي مباشرة في مثل هذه الأعمال " العيالية " .. و مع سخونة المعركة الانتخابية تعرض زميلي و تابعي لإهانات من هذا الزميل المنافس له .. و كان عليّ أن أتصدي له، و تمثل هذا التصدي في " علقة " نالها مني .. و كان للعلقة أصداء واسعة (!!) فلم

يرتدع هذا الزميل فقط، بل تصور نفسه ضائعاً في هذه الحياة، و ظن حياته في خطر بسبب عدائي له .. فتسلل خلسة من المدرسة إلي مركز الشرطة، و قدم بلاغاً بأنه لا يستطيع أن يذهب إلي بيته – في المدينة نفسها – خوفاً مني، أنا الذي أقطع تسعة كيلومترات في المواصلات العامة حتى أصل للمدرسة – و خلسة كذلك تسلل أحد المخبرين إلي المدرسة، و قد حرص علي ألا يعرف الناظر أو المدرسون بوجوده، و اقترب مني متوددا، ومشيراً إلي أن مشكلة بسيطة في المركز سوف تحل بشهادتي فيها، ثم أعود للمدرسة فوراً، و بلعت الطعم، و ذهبت رفقة المخبر، الذي سلمني مباشرة لمأمور المركز، وبمجرد أن لمحني أغرقني جعيره في الذهول، إنه يرغى و يزبد .. إذ ذاك علمت أنني ذو حيثية، فهذا الرجل كبير المنصب و السن يهددني أنا !! واستمرت تهديداته حتى حذرني من التعرض لزميلي المرشح !! ثم أمسك التليفون و أجرى اتصالا ببعض أقاربي في القرية، و أخبرهم بأعمالي " الفظيعة " التي تكدر الأمن العام !! ثم طردني، فانطردت !!

لم يستفزني في هذه الواقعة إلا أنني قد خدعت، و قد غرر بي المخبر حتى وصلت إلي قسم الشرطة .. و قبلها بعام لم أبلع هذا الطعم .. فقد و صلتني تحذيرات من الأستاذ عبد الرسول – مدرس اللغة العربية – و من الناظر بألا أصحب مخبراً سوف يأتيني من مركز الشرطة، و أن أرفض مرافقته إلي خارج المدرسة، و حينما جاءني بتوددة الأصفر، لم آبه له .. أما لم جاء في العام الماضي ؟! أنها مجرد مشاجرة بيني و بين زميلي (ماجد) القادم إلينا من الجنوب – ربما أسيوط أو سوهاج – و قد ظل طوال حصة اللغة العربية يسخر من الأستاذ عبد الرسول، و يستخف به، و يرفض توجيهاته له بالصمت، حتى استفزني جداً، و بمجرد أن خرج المدرس من الفصل، نبهت ماجد – الطويل العريض المغتر – إلي سوء تصرفه مع المدرس، و خاصة انه مدرس اللغة العربية، فسخر مني كذلك، و زاد فهددني بأنه سيضربني بالحذاء، ثم سحب حذاءه فعلاً من رجله !! و حينها لم يفد ماجد من طوله ولا عرضه، فقد انتزعت منه فردة حذائه، و انهلت بها علي وجهه، وسط صراخات بعض الزميلات، و زغاريد أخريات، ثم رميت بالحذاء من الدور الثالث بالمدرسة إلي الحقول المجاورة !! ليخرج حافياً إلي مركز الشرطة !!

لم تردعني هذه التجارب المؤلمة و الخطرة، و لم تثنني عن الاقتحام .. و إن تغير شكل هذا الاقتحام، و ملابساته، و نتائجه .. فبعد شهور كنت قد اجتزت المرحلة الثانوية بتفوق، و ذهبت بأوراقي إلي كلية الألسن .. و قبيل بدء العام الدراسي الجامعي " أجريت" عملية اقتحام ناجحة لا لحقول القطن، ولا لوكالة البصل، و لا لمركز الشرطة، بل لمؤسسة دار الهلال بالسيدة زينب !!!

هـــــــوامش

١- موتور الرش : برميل ضخم مفتوح من أعلي، يوضع فيه المبيد الحشري، و قد تم تزويده بآلة لضخ المبيد في خراطيم طويلة جداً، تمتد في حقول القطن لمئات الأمتار، و يحملها رجال و أطفال حتى تنتهي بمن يمسك فوهة هذا الخرطوم، و يرش بها جداول القطن .. كما أن هذه الآلة مزودة بمحرك و عجلات لتنتقل ببطء من حقل لآخر كلما انتهت من المساحة المحددة لرشها .. و أثناء عملية التشغيل يحدث صوت هائل مستمر، و يتطاير رذاذ هذا المبيد من الفوهة الواسعة المفتوحة، إلي ما حولها .

٢- أنأنيء : أي أتناول الطعام علي مهل، قطعاً صغيرة جداً، و أمضغه كذلك في تأن، و هي تقال كذلك للسلخ – أي الخروف الصغير – و الجدي حينما يبدأ تعلمه الأكل و تناوله الحشائش .

٣- كان ظني في ذاك الوقت المبكر إن الصين ستصبح الدولة العظمي في هذا العالم، وأن دراسة لغتها يعني التواصل مع المستقبل .. و بعد التحاقي بالألسن فعلاً اتضح لي صعوبة هذه اللغة، فتحول اختياري إلي دراسة اللغة الروسية، حتى أتواصل مع أدبها العظيم، الذي كنت علي بعض البينة به، و درست في قسم اللغة الروسية فعلاً لمدة شهر .. و كانت خطتي أن أصقل معرفتي بلغتي القومية من خلال الاطلاع الخاص، أما اللغة الروسية فأتعلمها منهجياً .. و مع انغماسي في الدراسة لم أجد دقيقة واحدة انصرف خلالها من الدرس المنهجي إلي الاطلاع الخاص علي لغتنا العربية و آدابها .. فآثرت الانصراف عن الروسية إلي قسم اللغة العربية بالألسن .. وواصلت فيه حتى الليسانس .

٤- البُلغة : مداس ريفي، من الجلد الذي يحمل غالباً لوناً واحداً : الأبيض و أحياناً الأسود .. و هو بلا كعب، وواطيء جداً لا يفصل قدم من يلبسه عن الأرض سوي جزء من سنتيمتر .. وتغطى وجه القدم فقط ويبقى الكعب عارياً.. و يقال أن أفضل أنواع البلغ هو البلغة الفاسي !! و لا أعرف لماذا هي فاسي ؟ !!

صدر للكاتب

- **في الشعر :**

- **فصل من التاريخ الخاص (ديوان).. هيئة الكتاب ١٩٨٩.**
- **اليوم العاشر (ملحمة).. هيئة الكتاب ١٩٩٣.**
- **اليوم العاشر (طبعة ثانية) مكتبة الأسرة ٢٠٠١.**
- **الميلاد غداً (ديوان).. هيئة قصور الثقافة ١٩٩٦.**
- **مذكرات فلاح (ديوان).. هيئة الكتاب ١٩٩٩.**
- **وهج (ديوان) .. مكتبة الأسرة ٢٠٠٠.**
- **المطرود منك .. آب إليك (سيرة شعرية).**

- **في المســـــرح :**

- **بنات للبيع ..... هيئة الكتاب ٢٠٠٢ .**
- **أبطال قهوة جداليا ..... هيئة الكتاب ٢٠٠٥ .**
- **سارة و أخواتها ... نصوص مسرحية .. هيئة قصور الثقافة ٢٠٠٥ .**

- **في الـــــدراسات :**

- **مع الضاحكين .....مكتب أوزوريس ١٩٩٥.**

- **مع الضاحكين .....(طبعة ثانية) مكتبة الأسرة ٢٠٠٢.**

- **ديوان القاهرة .....صندوق التنمية الثقافية و هيئة الكتاب ١٩٩٨.**

- **المغترب .....هيئة الكتاب ٢٠٠٠.**

- **الإبداع الجديد و قضايا المجتمع .....هيئة الكتاب ٢٠٠٢.**

- **حديث النساء ..... كتاب الجمهورية ٢٠٠٥.**

- **قراء القرآن و نوادرهم .....دار نفرو ٢٠٠٦.**

- **حسن نصر الله ... بطل قومي في زمن الأقزام ....دار نفرو ٢٠٠٦.**

<u>و له تحت الطبع</u>

- **أنت رائحة الغناء (ديوان).**

- **السيادة اللغوية.**

- **عولمة وعوالم.. ومسرحيات أخرى.**

- **آنسات نادي القمر ومسرحيات أخرى.**

سيرة ذاتية موجزة

أولاً: البيانات الشخصية:

١- الإسم: حزين عمر محمد محمود حزين.

٢- اسم الشهرة: حزين عمر.

٣- الشهادات العملية:

ثانياً: اللغات:

١- اللغة العربية وآدابها.

٢- اللغة الإيطالية وآدابها.

٣- اللغة السريانية.

٤- اللغة العبرية.

ثالثاً: الخبرات الإدارية:

١- أمين عام بروتوكول التعاون الثقافي بين دار التحرير للنشر وهيئة البريد.

٢- عضو مجلس إدارة إتحاد كتاب مصر.

٣- أمين صندوق إتحاد كتاب مصر.

٤- سكرتير عام إتحاد كتاب مصر لدورتين.

٥- رئيس مجلس إدارة وتحرير سلسلة كتاب الجيل الجديد.

٦- مؤسس ورئيس مجلس إدارة تكتل المثقفين.

رابعاً: الخبرات الصحفية:

١- رئيس تحرير مجلة شموع الصادرة عن كلية الألسن أثناء الدراسة الجامعية.

٢- الإشراف علي الصفحات الثقافية في مجلة صوت الجامعة التي كانت تصدر عن جامعة القاهرة.

٣- عضو مجلس تحرير مجلة ضاد التي كانت تصدر عن إتحاد كتاب مصر.
٤- مدير تحرير صحيفة الزمان التي كانت تصدر عن مؤسسة الزمان التي تحولت إلي صحيفة المصري اليوم.
٥- المحرر الثقافي لصحيفة الوطن الكويتية قبل حرب الخليج.
٦- مشرف علي قسم المراجعة بدار مايو الوطنية للنشر لعدة سنوات.
٧- رئيس مجلس إدارة وتحرير سلسلة كتاب الجيل الجديد.
٨- رئيس تحرير سلسلة إشراقات جديدة التي تصدر عن الهيئة المصرية العامة للكتاب.
٩- محرر بصحيفة الجمهورية.
١٠- نائب رئيس القسم الأدبي بصحيفة المساء.
١١- مساعد مدير تحرير صحيفة المساء.
١٢- مساعدة رئيس تحرير المساء.
١٣- نائب رئيس تحرير صحيفة المساء.

خامساً: النشاطات الإدارية والمؤتمرات:

١- الأمين العام لمؤتمر أدباء مصر- دورة الإسكندرية.
٢- الأمين العام لمؤتمر الأدباء والكتاب العرب- دور القاهرة.
٣- عضو الوفد المصري في إجتماعات المكتب الدائم للإتحاد العام للأدباء والكتاب العرب في اليمن وسوريا.
٤- رئيس رئيس مهرجان الفيوم للفنون.
٥- رئيس مؤتمر ديرب نجم الثقافي.
٦- المشرف العام علي ليالي رمضان الثقافية بإتحاد الكتاب في القلعة.
٧- المؤسس والمشرف علي مسابقة الثقافية.

سادساً: الكتب: نشر له حوالي سبعة عشر كتاباً في مختلف المجالات، وصادرة عن كبريات هيئات ومؤسسات ودور النشر منها:

١- فصل من التاريخ الخاص.

٢- الإبداع الجديد وقضايا المجتمع.

٣- حديث النساء.

٤- أبطال قهوة جدالياً.

٥- المغترب: حوار جيلين.

سابعاً: مقالات وإبداعات:

- نشر له مئات المقالات والأعمال الإبداعية في صحف يومية واسبوعية ومجلات شهرية، منها:

١- في مصر: الجمهورية- الأخبار اليوم- الأهرام- المساء- الهلال- حواء- مايو- مجلة أكتوبر- مجلة الإذاعة والتليفزيون.

٢- في الدول العربية: الوطن الكويتية- المنهل السعودية- الشرق السعودية- المجلة العربية بالسعودية- اليوم السعودية- الخليج الإماراتية.

ثامناً: أعمال صدرت عنه: صدرت عنه عدة كتب ودراسات نقدية

١- رسالة ماجستير للباحث علي حوم عن الريفي في اعمال وكتابات حزين عمر.

٢- حزين عمر بين العشق والتصوف والوطنية.

تاسعاً: كتب عنه نخبة من كبار الكتاب والصحفيين منهم:

كامل زهيري- محمد العزبي- فتحي سلامة- د. حسن فتح الباب- د. كمال نشأت- د. عوض الغباري- د. مدحت الجيار- د. أيمن تعيلب- د. أحمد الصغير.